أحسن القصص للأطفال

من بساتين الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/١٢/٤٣٩٢)

٨١٣,٩

حسن، سليم أحمد

من بساتين الإسلام/ سليم أحمد حسن._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.

(٧٢) ص

ر.أ.: (٤٣٩٢/ ١٢/ ٢٠١١).

الواصفات: القصص العربية// العصر الحديث

❖اعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الاولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com

أحسن القصص للأطفال

من بساتين الإسلام

إعداد

سليم أحمد حسن



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمَة

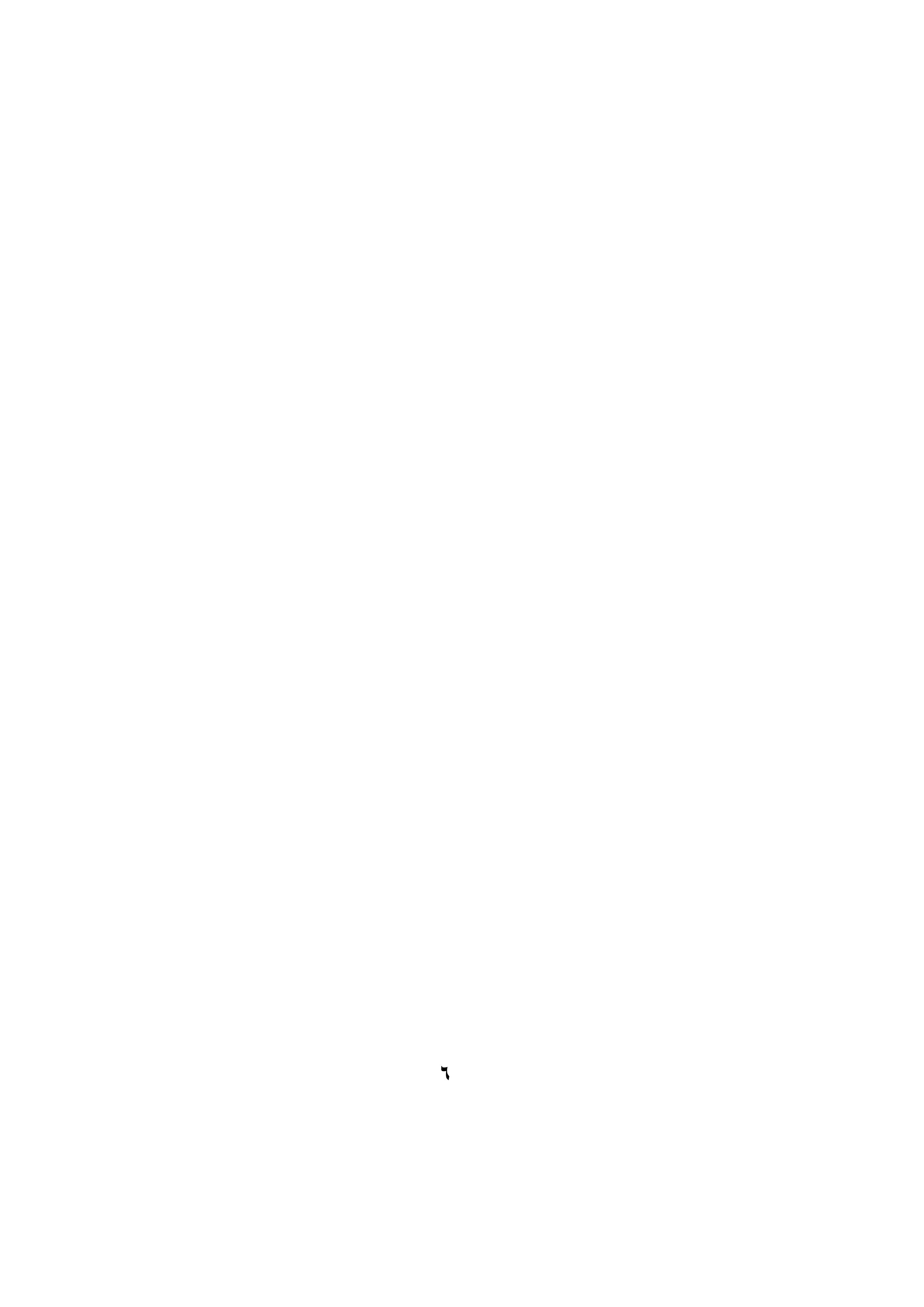
نعلم جميعا أن خير وسيلة لاستقامة السلوك والأخلاق، هي التربية القائمة على العقيدة الدينية.

ومن هذا المنطلق، فإننا نسعى لتربية أطفالنا على دين الله تعالى، وما فيه من القيم الأخلاقية السامية. مستعينين قدر الإمكان بمعطيات الحضارة التي لا تتعارض مع تعليمه ومبادئه.

وانطلاقا من اهتمامي بثقافة الأطفال، وتفرّغي للكتابة في هذا المجال، وأثناء قراءاتي التي لا تكاد تنقطع، قرأت الكثير من قصص التراث الإسلامي، والتي تحمل الكثير من الأهداف التربوية الإيجابية، التي تساعد الطفل في تكوين مفاهيمه السليمة.

وهذا يعني أن هذه القصص منقولة إلى حد كبير، ولكنها لا تحمل أسماء مؤلفيها. وليس لي فيها غير جهد الإعداد، من تدقيق وتصحيح وتنسيق وإعادة صياغة أو تعديل طفيف.

حسبي ثواب الله تعالى، من خلال خدمة جيل الغد وأمل الوطن والأمة، في البناء والنهضة والتحرير.



العطاء..

كان طالب يسير مع أستاذه على أطراف الحقول الزراعية أثناء رحلة جامعية، شاهدا فلاحا يعمل في أحد الحقول، وأمامهما في زاوية الحقل، كان الفلاح يضع حذاءه القديم . وكان الفلاح يستعد للمغادرة، بعد أن أنهى عمله كما يبدو.

خطر للطالب خاطر، فنقله إلى أستاذه: لماذا لا نمزح مع الفلاح ؟! نخفي حذاءه، ونرى ما يفعل! سيكون منظره مسليا حينذاك.

ابتسم الأستاذ وقال للطالب: سأدلك على شيء أفضل، أنت طالب ثري، لماذا لا تضع قطعة نقود، في كل فردة من حذاء الفلاح، ثم نختفي، ونشاهد ما يكون!

وضع الطالب في كل فردة من حذاء الفلاح عشرة دنانير. وجلس مع أستاذه خلف شجرة قريبة، ينتظران انتهاء الفلاح من العمل.

حين وضع الفلاح قدمه في إحدى فرادِ الحذاء، شعر بشيء في داخله. انحنى وحملها، ومدّ يده بداخلها، فخرجت بالدنانير العشرة ! بدا القلق والتوتر واضحا في تصرفاته، راح ينظر حوله ! يرفع رأسه إلى السماء ! يهزّ الحذاء! يتطلع إلى جهة الأشجار حيث يختفي الأستاذ وتلميذه! ولا يجد شيئا.

جرّب أن يضع قدمه الأخرى في الحذاء، شعر بنفس الشيء، رمى الأولى، وانحنى يحمل الثانية، مدّ يده بداخلها، فخرجت بعشرة دنانير أخرى. ازدادت

دهشة الفلاح، وعاد يتصرف كما في المرّة الأولى، ليجد تفسيرا لما يحدث. لكنه لم يصل إلى أي شيء .

جثا الفلاح على ركبتيه، ورفع يديه إلى السماء وقال: الحمد لك يا رب على عطائك الكريم، لا إله إلا أنت حين تقول في كتابك الكريم، "وفي السماء رزقكم وما توعدون"، أنت تعلم يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين، أن زوجتي مريضة، وليس في البيت طعام، وطفلتي لم تذهب إلى المدرسة لأنها تحتاج دفترًا وقلما، وليس معي نقود أقضى بها تلك الحاجات. لك الحمد يا رب حتى ترضى !

حينها سأل الأستاذ تلميذه: أيهما كان الأفضل، أن تأخذ حذاء الفلاح لتتسلى بما سيفعل، أم بهذا العطاء النبيل .

رفع الطالب عينيه إلى أستاذه وهي مليئة بالدموع وقال له: لا مجال للمقارنة!

لقد علمتني درسا مفيدا لن أنساه وذكرتني أستاذيَ الفاضل بالحكمة التي تقول: "إنك ستشعر بمزيد من السعادة حين تعطي لا حين تأخذ". إنني أشعر بسعادة وراحة لم أشعر بهما من قبل.

تابع الأستاذ: هذه عظمة الدين الإسلامي، وسيجزيك الله بذلك خيرا، ويكون في عونك، فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

وردّ الطالب: سأعطي مما أعطانا الله، لن أترك فرصة أساعد فيها الآخرين، وسيكون هذا الفلاح بداية الطريق، سأبحث عن بيته في القرية المجاورة، وأرسل له معونة شهرية.

النجار

منذ طفولته، كان العم"أبو محمود"قد بدأ العمل في منجرة، يتدرب على أعمال التجارة، فقد ترك المدرسة قبل دخول الصف الخامس.

ومع مرور السنين، أصبح العم "أبو محمود" نجارا بارعا، يطلبه معظم الذين يتعاملون مع تلك المنجرة لإنجاز أعمالهم، فلقد كانت كل أعماله إبداعات فنيّة رائعة. ولهذا كان صاحب المنجرة يعطيه راتبا ممتازًا، ونسبة من الأرباح، ويحترمه ويحبه.

ومعا كبر العم " أبو محمود " ، وكبر صاحب المنجرة فاستعان بأحد أبنائه، ولكنه بقي يشرف إداريا على العمل.

وشعر العم"أبو محمود" أنه قد حان أوان الراحة، وعليه أن يقضي ما شاء الله له من بقية في العمر مع عائلته. لكنه كان يخجل من مصارحة صاحب المنجرة بما يفكر فيه، احتراما وتقديرا له.

وذات صباح استجمع العم أبو محمود شجاعته، وأبلغ صاحب العمل بقراره، والذي رجاه أن يبقى ليساعده بالإشراف على كل أعمال المنجرة، دون أن يعمل بيده. ولكن "أبا محمود" أصرّ على التقاعد.

- لي رجاء أخير عندك، قال صاحب العمل.
- ما هو ؟ لن أتردد لحظة في تنفيذ ما تطلب. قال أبو محمود .
- أريد أن تبنيَ لي بيتا جميلا من الخشب في مزرعتي القريبة.
- سأفعل – إن شاء الله – .

بدأ العم أبو محمود بناء البيت بعد الاتفاق على التصاميم، وراح صاحب البيت يزوده بكل ما يطلب.

لكن النفس أمّارة بالسوء، وبدأ الشيطان – لعنة الله عليه – يوسوس لها، ويحدّث أبا محمد: كم هو ظالم صاحب هذا العمل، يريدك أن تعمل حتى آخر لحظة، وستبني له هذا البيت الجميل، دون أن يعطيك أجرا، ألا ترى أنه يستغل فيك الصداقة والطيبة وكرم الأخلاق. قم ببناء هذا البيت كما اتفق، ولا تتعب نفسك.

ووجَدَت وسوسة الشيطان في نفس أبي محمد قبولا، فراح يضع قطعا من الخشب غير صالحة في أماكن غير مرئية، ولا يهتمّ كثيرا بأعمال الديكور، ويتأخّر في إنجاز البناء. وصاحب العمل لا يسأله بشيء لثقته الكاملة فيه.

وحين انتهى البناء، أخبر أبو محمد صاحبه أن يأتي لاستلامه، وحين وصل إلى حيث البناء، نظر إلى أبي محمود وقال له :

– أخي الحبيب، كنت لي نعم المعين بعد الله ،وكنت ليَ الصديق الصدوق، وكنت موضع ثقتي دائما، ولم أجد شيئا أقدّمه لك غير هذا البيت، فطلبت منك بناءه لي، لأنك لن تقبل الهدية لو أعلنت عنها منذ البداية، مبارك عليك هذا المنزل، تعيش فيه أنت وعائلتك بهناء وسعادة، وتركه وانصرف.

– وقف "أبو محمود" مذهولا نادما، ومع دموعه المتساقطة، راح يستغفر الله ويتوب إليه، ويلعن الشيطان ويقول: كان عليّ أن أكون أكثر إيمانا وصبرًا، وأتذكر أن من أراد أن يكون له بيت صالح جميل في الجنة، فيجب أن تكون البيوت التي يبنيها في الدنيا صالحة وجميلة، ليس فيها عيب وغش.

الصيّاد

كان تاجر ثريّ قد حضر إلى قرية اعتاد أن يشتري من فلاحيها محصول القمح والشعير. وكانت تلك القرية تقع قريبة من شاطئ البحر،وفي الصباح وحين كان التاجر يتمشى على الشاطئ، شاهد صيادا من أهل القرية، في قارب صغير قديم، وليس في سلته غير سمكة متوسطة الحجم.

قال التاجر: كم من الوقت استغرق صيد هذه السمكة ؟

قال الصّياد: قليلا من الوقت فقط .

قال التاجر: ولماذا لم تبق وقتا أطول، وتصيد مزيدا من السمك؟

قال الصياد: وما حاجتي به، فأنا أصيد يوميا ما يكفي لطعام أسرتي.

قال التاجر: وماذا تفعل طيلة يومك إذن؟

قال الصياد: أقضي وقتا مع أسرتي، ألاعب أبنائي وأستمع إليهم ويستمعون لي.

أصلي أوقات الصلاة، وأقرأ في كتاب الله الكريم، ثم أقوم في المساء بزيارة الرحم والأصدقاء، وبعدها أعود للنوم، ألا ترى أن وقتي مليء وممتع.

قال التاجر: أي متعة وسعادة مع الفقر؟

قال الصياد: ألا تكون السعادة بالقناعة والرضا؟

قال التاجر: اسمع أيها الصّياد، أنا تاجر ثريّ، وتجاربي كثيرة، أستطيع أن أساعدك.

- بماذا؟ وكيف؟

- أدلك على طريق الغنى .. اقض يومك في الصيد، وقم ببيع ما يزيد عن حاجتك، فإذا جمعت نقودا كافية فاشتر قاربا أكبر، وهكذا يزيد الإنتاج والمال،

فتشتري قاربا آخر، وثالثا، ورابعا، وهكذا تبدأ بالبيع لتجار الجملة الكبار، ثم تنتقل إلى المدينة، وتفتح شركة خاصة، وهكذا تمضي بالتوسع. حتى تصبح ثريا.

- وكم يحتاج ذلك من وقت ؟
- عشرين عاما على أبعد تقدير؟
- وماذا بعد ذلك؟
- حينها إذا أردت التقاعد، تبيع الشركة والقوارب بالملايين، وتعود لتعيش في القرية، تجلس مع زوجتك وعائلتك، وتؤدي الصلوات، وتقرأ القرآن وفي المساء تزور الأرحام والأصدقاء، ثم تعود للنوم.

قال الصياد: ألا ترى أن الطريق طويلة، وغير آمنة لأعود في النهاية حيث أنا الآن! اسمع مني هذا الحديث الشريف: "من نام آمنا في سربه، معافى في بدنه، وملك قوت يومه، فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها" .

❊ ❊ ❊

الأسئلة الصعبة

اعتاد أحد الملحدين أن يدور في شوارع المدينة، يتحدى أي مسلم أن يجيبه على أسئلته، وحين يتطوع أحدهم لخوض التجربة يفشل، فالأسئلة صعبة، وتحتاج إلى عالم بالدين. ويزداد الملحد صلفا، وذما واستهزاء بالإسلام والمسلمين.

وذات يوم، وكان في الشارع أن يتحدى من يجيب على الأسئلة، سمعه طفل في العاشرة من عمره، فجاء إليه، وصاح به أمام الناس.

- أنا أقبل التحدّي، وسأجيب على أسئلتك.

- أنت ! - وراح الملحد يضحك كالمجنون ويصيح - طفل يتحدّاني - ألم يبق رجال في المدينة، اذهب أيها الصغير، حتى لا تقلق أمك عليك!

- لماذا لا تقبل التحدّي، وفي النهاية، سيضحك الناس مني أو منك!

صاح الناس، اقبل التحدّي، اقبل التحدّي، فقبل الملحد ذلك. ووقف على مرتفع من الأرض وقال للطفل.

- إليك سؤاليَ الأوّل: ماذا يفعل إلهكم الآن؟

فكر الصبي قليلا ،ثم قال للملحد.

- انزل من مكانك، ودعني أصعد إليه.

- ولماذا؟

- كي أستطيع إجابتك على مسمع من الناس.

وحين وقف الطفل على المرتفع قال:.

- إن اله الآن قد رفع المسلم، وأخفض الكافر، رفع الحق وأزهق الباطل.

تعالت الصيحات في الميدان :الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

- انتظروا ولا تستعجلوا الفرحة، فقد بقي سؤالان ..

- ما الذي كان موجودا قبل الله، أيها الطفل الفصيح؟

فكر الطفل قليلا ثم قال:

- هل تعدّ لي عكسيًا من ١٠ - ٠ ، لا تقل لي لماذا؟ أرجو أن تعدّ.

بدأ الملحد يعدّ، ١٠ / ٩ / ٨ / ٧ .... صفر .

- وماذا قبل الصفر؟

- لا شيء طبعا.

- وهكذا الله تعالى، لا شيء قبله، وهو الأبدية المطلقة .

وعادت صيحات الجمهور تتعالى: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

- هاتِ سؤالك الثالث.

- إلى أيّ اتجاه ينظر الله ؟

وعاد الطفل يفكر، ثم طلب شمعة وكبريتا، ثم سلم الشمعة للملحد، وطلب منه أن يشعل الشمعة ففعل.. وحينها سأله:

- في أي اتجاه يضيء نور الشمعة ؟

- إنه يضيء في كل اتجاه .

- وهكذا نور الله، فهو نور السموات والأرض .

وبينما كان الملحد يشهد الناس في الميدان على إسلامه، كان هتافهم يملأ الميدان: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

كان هذا الطفل المعجزة، هو الإمام "أبو حنيفة" رضي الله عنه.

* * *

أنا مُسلمة ..

دخلت معلمة الأطفال الصف ذات يوم، وألقت عليهم تحية الصباح، وقالت: إنها اشتاقت إليهم، وافتقدتهم لأنها تحبهم.

ثم أضافت بتحبّب: أنا وثنية، لا أومن بالأديان، حرِّيتي مطلقة، أفعل ما أشاء، وأذهب أنىّ أشاء . أطير كالفراشة في الحقول، وكالطير في السماء. لا أهتمّ بغير مصلحتي.. فمن منكم يحب أن يكون وثنيا مثلي ؟

تدافع الأطفال حبا بمعلمتهم، وبكلّ براءتهم برفع أيديهم، دون أن يدركوا المعنى الخبيث الذي ترمي إليه المعلمة.

نظرت المعلمة إلى الأطفال بارتياح، ولكنها وجدت أنّ الطفلة "زينب" ، وهي أجمل وأذكى من في الصف لا ترفع يدها.

فقالت باسمة: ألا تريدين أن تكوني وثنية مثلي يا زينب ؟

أجابت زينب: لا، فأنا مسلمة.

: ولماذا أنت مسلمة يا زينب.

: لأنني نشأت في أسرة مسلمة، أبي مسلم، وأمي مسلمة، ديننا يعلمنا عبادة إله واحد، هو خالقنا وخالق كل شيء، وهو الذي وهبنا النعم ويعلمنا الحبّ والتسامح، ومساعدة المحتاجين والفقراء، ويأمرنا بالخير والمعروف، وينهانا عن المنكر.

: هذا لا يكفي يا زينب، لنفرض أن أباك كان شرّيرًا عاصيًا، لا يؤمن إلا بنفسه ومصلحته، وكانت أمك مثله، فماذا ستكونين.

ردّت زينب بكلّ ثقة: لو حدث ذلك – لا سمح الله – فسأكون وثنية مثلك.

* * *

قبل أن تجيب..

جاء رجل إلى عالمٍ في الدين، وبعد أن خلا مجلسه، وبقي الرجل..

قال للعالم: هل علمت ما يقال عن صديقك فلان؟

قال العالم: لم أعلم، وقبل أن تقول لي ما تريد، عليك أن تجيبني عن ثلاث مسائل.

: هل تخضعني لامتحان أيها العالم.

: ما يشبه ذلك.

هل أنت متأكد من صحة ما تقول؟ وسمعته بنفسك؟

: لا، فقد سمعته من الناس.

: إذن، الحقيقة الأولى، أنك لست متأكد من صحة ما ستقول.

: هل ما ستقوله طيبٌ وخير بحقّ ذلك الصديق؟

: على العكس من ذلك تماما.

: أصبح لدينا حقيقتان: الأولى عدم التأكد من صحة الخبر، والثانية أنه ليس طيبا أو خيرًا.

بقيت الثالثة: هل ما ستقوله مفيد لي ؟

: ليس بالضرورة، ولا أضمن ذلك.

قال العالم: لماذا تقول لي إذن، ما تشكّ في صحته، وليس خيرًا، وليس مفيدًا، لماذا نعمل السيِّئة بما نهانا الله عنه، اذهب أيها الأخ - هداك الله - فاقرأ الآيتين، الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة "الحجرات".

* * *

وبالوالدين إحسانا..

في قرية من القرى الصغيرة، كان رجل كبير في السن، يعيش مع أبنائه الثلاثة. كان الرجل يملك مزرعة كبيرة تدرّ عليه دخلا كبيرا، ولم يكن أحد من أولاده يساعده في عمله، بل كان كل منهم يسير على هواه، ويعيش دنياه طولا وعرضا، دون حساب للآخرة. ولم يقم أحد منهم بواجبه نحو والدهم، وعاملوه بمنتهى القسوة.

وفي يوم من الأيام جمع الرجل أبناءه الثلاثة وقال:

- يا أبنائي، لقد كبرت ،ولم أعد أستطيع العمل في المزرعة، وقد آن الأوان أن أقسم بينكم أرض المزرعة، وما أملك من أموال. ولكم أن تعملوا معا كما أحبّ وأتمنى، أو أن يعمل كل منكم بما يملك، وأوصيكم بالصدق والخير والإحسان.

واشتغل كل واحد من الأبناء بماله الذي ورثه عن أبيه، ولكنهم خالفوا وصية والدهم بالصدق وعدم الغش، والتعامل بالخير والإحسان. ومن ناحية أخرى تلهى كل منهم بنفسه وملذاته، وأهملوا الاعتناء بوالدهم العجوز، حتى صار في حالة يرثى ويعاني ألم المرض والهرم والوحدة، وعدم قدرته على العناية بنفسه.

كان لوالدهم صديق وفيّ،وحين جاء يزوره ذات يوم، شكا له حاله مع أولاده، وكيف تركوه بعد أن وزّع ما يملكه عليهم. ولم يعودوا يقدمون له أي عون أو رعاية، حتى أنهم انقطعوا عن زيارته،حتى أصبح على هذا الحال .

تأثرّ الصديق لحال صديقه وقال له: أنا أكفيك أمر أولادك العاقين، لكن أرجو أن يبقى الأمر بيني وبينك، وتوافق على كل ما سأقوم بعمله.

وصار هذا الصديق يخلوا بالأبناء واحدا واحدا ويقول له: إن والدك أودع عندي صندوقا من المال،وقد قرّرت أن أعيده إليه، وكان والدكم قد أخفاه عنكم وأبلغني أنه سيهبه لمن يرعاه منكم حتى يوم الرحيل،وأرجو أن تحضر غدا صباحا عند والدك لأنني سأسلمه المال بحضوركم جميعا، وقد سمعته يتحدّث عنك بالخير، وهو يحبك كثيرا،ولذا عليك الاجتهاد في بره ومحبته لكي تزداد محبتك عنده ويعطيك ذلك المال. وأرجو أن لا يعلم أحد من إخوتك بما دار بيني وبينك.

وحين اجتمعوا في الصباح، أحضر صديق والدهم صندوقا كبيرا مقفلا، وكان قد ملأه حجارة . وسلمه لوالدهم قائلا: هذا مالك الذي أودعته عندي، أريد أن أسافر،ولا آمن عليه قي بيتي، وهذا مفتاح الصندوق. لقد قلت لي مرّة أنك ستهب هذا المال لأبرِّ أبنائك بك، ومن سيرعاك ويحسن إليك حتى يأتي قضاء الله، فافعل ما شئت، فإني قد أديت الأمانة.

نظر الوالد إلى أبنائه وقال: كنت أعلم أنكم ستتركونني حين أعطيكم المال، ولذلك أبقيت هذا الصندوق لأعطيه لمن سيرعاني منكم ويحسن إليّ حتى ساعتي الأخيرة، حيث سأضع اسمه في الصندوق بتلك اللحظة، وتفتحون الصندوق بعد وفاتي.

صار الأبناء يتسابقون على خدمه والدهم، ويكرمونه ويخدمونه. وكل واحد منهم يحاول التفوق على إخوته في هذا المجال، وعيونهم تتطلع إلى يوم وفاته، وفتح الصندوق، وكل منهم يمني النفس أن يكون هو الفائز به.

وكان الأب سعيدا بما يدور حوله، فقد عاش آخر أيامه براحة وهدوء، يعبد الله ويقرأ في كتابه الكريم، ويستغفر له ولأبنائه الذين أعمى حب المال والدنيا بصائرهم وأمات ضمائرهم.

ولما حان الأجل، وحلّ قضاء الله في الرجل، تظاهر أبناؤه بالحزن، لحظات الدفن وأيام العزاء.

واتفقوا بعد خلاف طويل، على استدعاء صديق والدهم لفتح الصندوق، وقراءة اسم الابن الذي سيرث المال.

قام الرجل بفتح الصندوق، فإذا هو مليء بالحجارة، ووجد ورقة فتحها وقرأ ما فيها على مسامعهم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٤]

نظر الرجل إلى وجوه أبناء صديقه، فوجدها تفيض بالدمع تعبيرًا عن الندم والتوبة، فقال لهم:

إنكم الآن تبدأون الخطوة الأولى في الطريق الصحيح، أحسنوا لوالدكم بالتصدق عنه والدعاء له.

* * *

"سفينة" والأسد

في يوم من الأيام خرج نبينا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه الكرام رضي الله عنهم في سفر. كان السفر طويلا وشاقا . فتعب الصحابة " رضي الله عنهم" من ذلك السفر. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحبه ومولاه وخادمه قيس وقال له: ابسط كساءك.

فأسرع قيس إلى تلبية أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فرحا ومسرورا وبسط ثوبه.

فأقبل الصحابة وراحوا يضعون أشياءهم ومتاعهم في الكساء. فمنهم من ألقى سيفه، ومنهم من ألقى رمحه، وكانت هذه أسلحتهم التي يقاتلون بها الكفار أعداء الله. فلما امتلأ الكساء حمّله النبي صلى الله عليه وسلم لقيس رضي الله عنه ثم قال وهو يلاطفه ويداعبه: احمل، ما أنت إلا سفينة. وهكذا أصبح اسمه "سفينة"، لأنه حمل الأمتعة في السفر كما تحملها السفينة.

فرح قيس بهذا الاسم وقال: لو حملت في ذلك اليوم أكثر مما يحمله بعير أو بعيران أو خمسة أو ستة ما ثقل علي. و ذلك ببركة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه قال لي: أنت سفينة. فصرت أحمل مثل السفينة أثقالا كثيرة.

ولأنه سارع في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأعان أصحابه لم يتعب من حمل هذه الأشياء الثقيلة.و حفظه الله في هذه الحادثة العجيبة الغريبة . .

فذات يوم ركب سفينة "سفينة" تجري في البحر تشق الأمواج بفضل الله ونعمته. وفجأة انكسرت السفينة، فأنقذ الله عز وجل صاحب نبيه صلى الله عليه وسلم، وتعلق سفينة رضي الله عنه في لوح السفينة التي تكسّرت. فأخذت الأمواج اللوح

الذي ركبه وجعلت تدفعه إلى الشاطئ ،و كل ذلك بحفظ من الله تعالى لهذا الرجل الصالح حتى وصل سفينة ساحل البحر وقذفه الموج على الشاطئ سالما بحمد الله.
نظر سفينة حوله، فوجد نفسه في غابة بها أشجار كثيرة، وفجأة سمع صوتا رهيبا مخيفا مزعجا. فالتفت سفينة فإذا بأسد متوحش قادم عليه يريده. فماذا فعل سفينة؟

لجأ سفينة إلى الله تعالى وعرف أن الله لا يضيع عباده المؤمنين. و علم أن الكون كله ملك لله يتصرف فيه كيف يشاء، وأن الأسد وغيره مهما كان قويا فهو مخلوق من مخلوقات الله إذا أمره الله بأمر ينفذه بالحال.

أقبل سفينة إلى الأسد بشجاعة وثقة بالله وقال له: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما سمع الأسد ذلك منه، هدأ وطأطأ رأسه وأصبح كالهرِّ الوديع .

ثم أقبل على سفينة رضي الله عنه يدفعه بمنكبه حتى أخرجه من الغابة كأنه يحرسه ويدله على الطريق.

ثم التفت الأسد إلى سفينة رضي الله عنه وهمهم بصوت ضعيف كأنه يودّعه. ثم دخل الغابة عائدا يبحث عن طعام آخر غير هذا الرجل الصالح الذي يحبه الله ويحبه رسوله صلى الله عليه وسلم.

وأما سفينة، فحمد الله على تلك النعم العظيمة، وعاد إلى إخوانه وحكى لهم هذه القصّة العجيبة ليكونوا مثله يسارعون في طاعة الله ورسوله، ويحبون إخوانهم ويساعدونهم، ويثقون بالله، ويتوكلون عليه فينالون رضا الله عنهم ومحبته لهم...

* * *

هل هذا العيد لنا ..

كانت عقارب الساعة تشير إلي الثانية عشر إلا خمس دقائق من ليلة الحادي والثلاثون من ديسمبر.أسرعت الأمّ بخطوات سريعة نحو مفتاح الكهرباء وأغلقته ليعم البيت ظلام دامس.فجأة أضاء هذا الظلام شعلة صغيرة في يد الأب اتجه بها نحو الشمعة التي في منتصف الكعكة التي قضت الأمّ فيها الساعات لتزيِّن وجهها ولم تنس أن تخط ّعليها كلمة [Happy New Year].

بدأ ضوء الشمعة يزيل شيئاً من الظلام، ليظهر وجه أحمد الطفل الصغير الذي كان يجلس بجوار الكعكة. كانت الأم تنظر إلي الشمعة وهي تفكر في أيام شبابها وزواجها وكان الأب ينظر إلي الشمعة وهو يفكر في مشاريعه التي بدأها. أما " أحمد الصغير" فكان ينظر إلي الشمعة وهي تحترق لتضيء لهم المكان، وفي رأسه يدور الكثير من الأسئلة.

قطع رنين الساعة،وهي تعلن تمام الثانية عشرة بعد منتصف الليل أفكار الجميع. أخذت الأم بيد أحمد،وأخذ الأب بيده الأخرى،واتجه الجميع نحو الشمعة، ثمّ "هووووووف"، كانت كفيلة بإطفاء الشمعة، ليصفق الجميع بما فيهم أحمد بيديه الصغيرتين.

قفز الأب نحو مفتاح النور وضغط عليه،فبانت تلك الزينة التي امتلأ بها البيت..

أحمد: ماما..

الأم : نعم ياحبيبي

أحمد: هل سوف نذهب غداً للكنيسة؟

الأم باستغراب: لماذا ؟!!

أحمد: معنا طالب مسيحيّ، قال إنهم سوف يذهبون غداً للكنيسة.

الأم: نحن مسلمون نذهب إلي المسجد.

سكت أحمد برهة ثم قال: هل سيحتفلون في المسجد غدا بعيد رأس السنة؟

الأم : لا

أحمد: لماذا ؟

احتارت الأم في إجابة هذا السؤال ففضلت الصمت.

ولكن أحمد واصل قائلاً: بالتأكيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم احتفل بهذا العيد.

انتفض الأب في مكانه ثم قال: لا لم يحتفل، فالمسلم لا يحتفل به!

نظر أحمد إلي أبيه باستغراب وقال: أنا أحب رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنتم قلتم لي يجب أن نفعل ما كان يفعله، ونترك ما لا يفعله، فلماذا إذن نحتفل بهذا العيد؟ طالما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحتفل به ؟

تلاقت نظرات الأم والأب، وكأنهما يبحثان عن مخرج من هذا المأزق الذي تسببه لهم أسئلة أحمد.

ضمّت الأم أحمد وقالت له: نحن نحتفل لنفرح، وغداً سوف نذهب بك إلى الحديقة فلا داعي لهذه الأسئلة الكثيرة.

سكت أحمد ،بالرغم من تلك الأسئلة التي تدور في رأسه الصغير، ولا يجد لها جوابا، حتى يرضي والديه.

قام الأب وفتح التلفاز، عسي أن يجد برنامجا ينسي أحمد أسئلته، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فما أن ظهرت الصورة، إلا وانطلق صوت الشيخ وهو

يتحدث في أحدي القنوات الفضائية: إن من مظاهر التغريب التي ظهرت في العالم الإسلامي الاحتفال بأعياد كثيرة لا علاقة للإسلام بها!

في حين أن الإسلام شرع لنا الاحتفال بعيدين فقط، هما عيد الفطر، وعيد الأضحى. والدليل ما رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال:ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال: إن الله قد أبدلكم خيرا منهما - يوم الأضحى ويوم الفطر . والدلالة من الحديث أن النبي لم يقرهما على العيدين قي الجاهلية، فنبذهما وجعل بدلهما عيدين شرعيين. هذا بالإضافة إلي يوم الجمعة. فلا يجوز لنا أن نحتفل بأعياد غيرنا، لأن العيد له علاقة بالعقائد ولكل أهل دين أعياد يحتفلون بها. ولهذا لا يجوز للمسلمين الاحتفال بمثل هذه الأعياد.

كان أحمد ينصت لكلام الشيخ كلمة كلمة، وكانت الدموع تجري على خديه.فمسحتها الأمّ بحنان، وهي تربت علي كتفيه.

أحمد: ماما هل عليّ أنا ذنب ؟

الأم: - وقد حاولت جاهده أن تحبس دموعها، ولكن ما استطاعت لتهرب منها دمعتين وهي تقول - لا ذنب عليك يا حبيبي، فما زلت صغيرًا.

الأب: أحمد نحن الذين أخطأنا، ولكننا نعدك أن لا نحتفل بعد اليوم إلاّ بعيد الفطر، وعيد الأضحى.

أحمد ببراءة الطفولة: ماما هل ستعملين لنا كعكة،جميلة، ونذهب إلي الحديقة في عيد الفطر القادم ؟؟؟

* * *

معصية الخالق

كثيرا ما يوسوس لنا الشيطان، وتدعونا النفس الأمارة بالسوء إلى ارتكاب ما يغضب الله علينا، فإن دعتك نفسك إلى عصيان الله فاقرأ هذه القصة، وطبق شروطها إن استطعت وبعدها فلتعصه ولا بأس عليك.

أقبل رجل إلى إبراهيم بن أدهم، فقال: يا شيخ إن نفسي تدفعني إلى المعاصي فعظني موعظة.

فقال له إبراهيم: إذا دعتك نفسك إلى معصية الله فاعصه ولا بأس عليك. ولكن لي إليك خمسة شروط.

قال الرجل: هاتها.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله، فاختبئ في مكان لا يراك الله فيه.

فقال الرجل: سبحان الله ..كيف أختفي عنه وهو لا تخفى عليه خافية.

فقال إبراهيم: سبحان الله أما تستحي أن تعصي الله وهو يراك؟!

فسكت الرجل ثم قال: زدني.

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تعصه فوق أرضه.

فقال الرجل : سبحان الله وأين أذهب وكل ما في الكون له.

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله وتسكن فوق أرضه ؟

قال الرجل: زدني.

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله، فلا تأكل من رزقه .

فقال الرجل: سبحان الله وكيف أعيش وكل النعم من عنده!

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله وهو يطعمك ويسقيك، ويحفظ عليك قوتك؟

قال الرجل: زدني .

فقال إبراهيم: فإذا عصيت الله، ثم جاءتك الملائكة لتسوقك إلى النار فلا تذهب معهم.

فقال الرجل: سبحان الله وهل لي قوة عليهم إنما يسوقونني سوقا.

فقال إبراهيم: فإذا قرأت ذنوبك في صحيفتك فأنكر أن تكون فعلتها.
فقال الرجل: سبحان الله فأين الكرام الكاتبون، والملائكة الحافظون، والشهود الناطقون؟

ثم بكى الرجل ومضى وهو يقول: أين الكرام الكاتبون، والملائكة الحافظون، والشهود الناطقون.

* * *

الشاب المؤمن والتفاحة

يحكى أنه في القرن الأول الهجري، كان هناك شاب تقي يطلب العلم ومتفرغ له. ولكنه كان فقيرا، وفي يوم من الأيام خرج من بيته من شدة الجوع لأنه لم يجد ما يأكله، فانتهى به الطريق إلى أحد البساتين والتي كانت مملوءة بأشجار التفاح. وكان أحد أغصان شجرة منها متدليا في الطريق. فحدثته نفسه أن يأكل تفاحة ويسدّ بها رمقه، فلا أحد يراه ولن ينقص هذا البستان بسبب تفاحة واحدة. فقطف تفاحة واحدة وجلس يأكلها حتى ذهب جوعه، ولما رجع إلى بيته بدأت نفسه تلومه، وهذا هو حال المؤمن دائما. فجلس يفكر ويقول: كيف أكلت هذه التفاحة وهي مال لمسلم، ولم استأذن منه . قرّر البحث عن صاحب البستان حتى وجده، وقال له: يا عم بالأمس بلغ بيَ الجوع مبلغا عظيمًا، وأكلت تفاحة من بستانك من دون علمك، وها أنا اليوم أستأذنك فيها.

فقال له صاحب البستان : والله لا أسامحك بل أنا خصمك يوم القيامة عند الله. بدأ الشاب المؤمن يبكي ويتوسل إليه أن يسامحه، وقال له: أنا مستعد أن اعمل أي شي بشرط أن تسامحني. وبدأ يتوسّل إليه، لكن ذلك لم يزده إلا إصرارا، وذهب وتركه. وتبعه الشاب يتوسل إليه حتى دخل بيته. وبقي الشاب عند البيت ينتظر خروجه إلى صلاة العصر. فلما خرج صاحب البستان وجد الشاب واقفا ودموعه التي تتساقط على لحيته تزين وجهه بنور الإيمان.

فقال الشاب: يا عم إنني مستعد للعمل فلاحا في هذا البستان، من دون أجر ما بقي من عمري شرط أن تسامحني.

عندها أطرق صاحب البستان يفكر ثم قال: يا بني إنني مستعد أن أسامحك الآن لكن بشرط .

فرح الشاب وتهلل وجهه بالفرح وقال: اشترط ما بدا لك يا عم.

فقال صاحب البستان: شرطي هو أن تتزوج ابنتي.

صدم الشاب من هذا الجواب وذهل، فكيف يعرض رجل ابنته للزواج؟ وأكمل صاحب البستان قوله: ولكن يا بني، اعلم أن ابنتي عمياء، صماء، وبكماء. كما أنها مقعدة لا تمشي .ومنذ زمن وأنا أبحث لها عن زوج يقبل بها، ويكون أمينا عليها، فإن وافقت عليها سامحتك.

صدم الشاب مرة أخرى، فهذه مصيبة ثانية، لم يكن يتوقعها،وبدأ يفكر كيف يمكن أن يعيش مع مثل هذه الفتاة، خصوصا أنه لازال في مقتبل العمر؟ وكيف تقوم بشأنه وترعى بيته وتهتم به وهي بهذه العاهات ؟

عاد يفكِّر ويقول: سأصبر عليها في الدنيا ،ولكن أنجو من ورطة التفاحة! فمصائب الدنيا أخفّ وطأة من عذاب الآخرة، وذهب إلى صاحب البستان، وقال له: يا عم لقد قبلت ابنتك، وأسال الله أن يجازيني على قدر نيتي وان يعوضني خيرا.

فقال صاحب البستان: حسنا يا بني، موعدنا الخميس القادم عندي في البيت، وسأتكفل بوليمة زواجك، ولا أريد منك مهرا، وستسكنان عندي.

فلما كان يوم الخميس جاء الشاب متثاقل الخطى، حزين الفؤاد، منكسر الخاطر، وليس كأي عريس في يوم عرسه. ولما طرق الباب، فتح له أبوها وأدخله البيت وبعد أن تجاذبا أطراف الحديث.

قال له يا بني: تفضل بالدخول على زوجتك، وبارك الله لكما وعليكما، وجمع بينكما على خير. وأخذه بيده وذهب به إلى الغرفة التي تجلس فيها ابنته.

ولما فتح الباب ،رأى أمامه ا فتاة بيضاء أجمل من القمر،وقد انسدل شعر كالحرير على كتفيها. وقامت ومشت إليه، فإذا هي ممشوقة القوام، تمشي بدلال وخفة كالغزال. ثمّ قالت: السلام عليك يا زوجي، أنا طوع أمرك بعد الله. أما صاحبنا، فقد وقف في مكانه يتأملها، وكأنه أمام حورية من حوريات الجنة نزلت إلى الأرض. وهو لا يصدّق ما يرى ! ولا يعلم ما الذي حدث ولماذا قال أبوها ذلك الكلام ... وفهمت الفتاة ما يدور في باله فذهبت إليه وقالت:

إنني عمياء من النظر إلى الحرام.

وبكماء عن الكلام في الحرام، وصماء عن الاستماع إلى الحرام.

ومقعدة لا تخطو رجلاي خطوة إلى الحرام..

وإنني وحيدة أبي، ومنذ عدة سنوات وأبي يبحث لي عن زوج صالح. فلما أتيته تستأذنه في تفاحة وتبكي من أجلها،

قال أبي: إن من يخاف من أكل تفاحة لا تحلّ له، حريّ به أن يخاف الله في ابنتي. فهنيئا لي به صهرًا،وهنيئا لابنتي به زوجا.

وبعد عام أنجبت هذا الفتاة من هذا الشاب غلاما، كان من العلماء والأئمة الأفاضل في هذه الأمة.

أتدرون من ذلك الغلام، إنه الإمام أبو حنيفة صاحب المذهب الفقهي المشهور.

* * *

العين بالعين ..

كانَ وليدٌ يجلسُ معَ والده ِبالصالونْ.
يبحثُ عن برنامج أطفال ٍ في التليفزيونْ .
كان سعيدًا مسرورا ..
فقبل قليل ٍكان بحضنِ الجدِّ الطيبْ.
يحكي الجدّ ُ له قصة َليلى والذئب.
وكان وليدٌ يضحكُ وهو يقول:
لستُ غبيا يا جدّ ُ، إلى هذا الحد ..
ذئبٌ يبلعُ جدّة َ ليلى..
ويأتي الصياد، ويقتله ُ ..
ويفتحُ بطنَ الذئب ..
ويخرِجُ تلكَ الجدّة َ سالمة ًحيّة ْ .
هذا منْ غير المعقولْ ..!
والقصّة ُ تبدو مضحِكة ً هزلية ْ..!
كانَ الجدّ ُ كبيرًا في السنِّ ..
وكانَ مريضًا يحتاجُ لمنْ يرعاه ْ..
ووليدٌ كانَ يساعده ُ، فيما يسطتيعُ ..
ويفرَحُ حينَ رضاهْ ..

* * *

جاءَت " أمّ ُ وليد"..
تصرخُ غاضبة ً يا الله !!!
أتعبَني هذا الشيخ ُ الثرثارْ !
حوّلَ كلّ َ حياتي قطعة َ نارْ !
وسأتركُ حتما هذي الدّارْ ....
إنْ لم تأخذهُ صباحَ الغدْ ..
وترميه ِ بدار ِ العجزة ِ كالصرصارْ .

*   *   *

لم ترمشْ جفنُ الأبْ ..
لم تهتز به ِ شعرة ْ..
قالَ وليد ْ .. يا أمي!!
صرختْ ... اخرسْ أنتْ !
ودخلتْ مسرعة ً إحدى الغرَف ِ ..
وعادتْ تحملُ باليد ِ "حَصيرة ".
ورمتها في وجه ِ الزوج ِ وقالتْ :
هذي تكفيه ِ .. وتلكَ عليه ِ كثيرة ْ.. !!!

*   *   *

قامَ وليدٌ، ودموعٌ تملأُ عينيه ْ..
وعاد يقول: يا أبَت ِ، أحضرتُ مقصًا ..
خذ ْهُ .. وقصٍّ حصيرةَ جدّي نصفين !
نصف ٌ يأخذه ُ معهُ .. والنصفُ الآخرُ يبقى ..
تأخُذه ُ معكْ.. حين تصيرُ عجوزًا ..
وأرْسِلكَ إلى حيثُ سترسلُ والدكَ الآنْ.

فالمثلُ يقول: السِنّ ُ يقابله ُ سِنّ ْ..
والعينُ يقابلها عَيْنْ .!
والجرحُ يقابله ُ جرحانْ .

* * *

من يسأل يتعلم!

أنا أحبّ أن أسأل؛ أحبّ أن أعرف وأن أستفهم عن كلّ شيءٍ تقع عيني عليه.
أميّ تقول: - أنت كثير الفضول، أسئلتك لا تنتهي!.

جدّتي تقول أيضاً وهي تصحّح لها: - لا تقولي: إنّه فضولي، قولي: إنه يريد أن يتعلّم، ومن لا يسأل لا يتعلّم!

ذلك الصباح، كنت ذاهباً إلى دار جدّي، إنّها في الطرف البعيد من المدينة،كانت الحافلة التي ركبتها مزدحمة، وهناك رجل يشاركني في المقعد، كان يلاصقني تمامًا، وعلى الرغم من أنّ التدخين ممنوع في الحافلة؛ لكنّه كان يدخّن!! لفافة طويلة من التبغ في فمه، ينفث منها دخانا كريها ومزعجا. وضعت كفّي على أنفي، وأدرت وجهي تفاديا لرائحتها المنفرة.. والرجل مستمرّ في نفث الدّخان غير مبالٍ بشيء.

شعرت بالغيظ، تململت في جلستي، تمنّيت أن يصعد مفتّش الحافلات في تلك اللحظة، وأن يعاقبه بغرامة مالية. كانت هناك ورقة في صدر حافلة الركاّب تنبّه إلى ذلك، غير أنّ الرجل لم يكن يلتفت إليها، فقط كان ينفث دخان لفافته مثل قاطرة قديمة في محطّة! أسرعت بالنزول قبل أن أصل الموقف الذي يوصلني إلى دار جدّي، كنت أريد أن أتخلص من هذا الرجل المدخن، ومن هذه الحافلة المزعجة المزدحمة، أريد أن أستنشق هواءً نظيفا لا يعكّره شيء!

وفي دار جدّي، أحسست بالسعادة. طالعتني نسمات ناعمة، هبّت لطيفة هادئة، صافحتْ وجهي وأنا تحت عريشة العنب الممتدّة من البوابة حتى المصطبة الحجريّة..

قلت لجدّي مستفهما: ما حكاية هذه اللفافة التي يتعلّق بها بعض الناس يا جدّي؟!
ابتسم بهدوء، ثم ربّت على كتفي قائلاً:

- هذه اللّفافة لها حكاية طريفة. بدأت في إحدى المدن الصّغيرة، مدينة جميلة، هادئة، تقع في وسط سهول وجبال وغابات، هواؤها منعش، وجوّها لطيف، أهلها يعملون بهمّة ونشاط. وجوههم تطفح بالبشر والصحّة والعافية، أجسامهم قوية. ينهضون مع خيوط الفجر الأولى، وينطلقون إلى حقولهم العامرة، وأعمالهم المزدهرة.

جاءهم ذات يوم تاجر غريب، كان يحمل كيسا من التبغ. وفي ساحة السّوق، صنع لنفسه لفافة تبغ غليظة، ثمّ أشعلها، وبدأ يدخّن أمام دهشة الناس، وينادي:

- تعالوا، هذا تبغ، له مذاقٌ لذيذٌ، تعالوا دخّنوا! وستدخل الفرحة إلى قلوبكم، انظروا، إنّني أصنع سُحُبا صغيرة تتوّج رأسي.. هل تستطيعون أن تفعلوا مثلي!..

لم يكن أحد من أهل المدينة الصغيرة. يعرف هذا التبغ! ولم يكن هناك مَنْ رأى هذه النبتة الغريبة!! اقترب بعض الشبّان، تناولوا اللفافة المشتعلة، قلدوا الرجل التاجر، غير أنّهم كانوا ينفثون دخانا ويسعلون.. يضعون أكفهم على صدورهم ويسعلون، ثم ينصرفون متذمّرين ساخطين، وهم يقولون: لم يبق إلاّ أن ندفع نقودًا نختنق بها، ونضرّ بها صحتنا.

بُحّ صوتُ التاجر وهو ينادي:

- سأبيع هذا التبغ بالثمن الذي اشتريته به، لن أربح شيئًا.. تعالوا دخّنوا، دخّنوا!

ولم يأتِ مشترٍ واحد؛ والكيس في مكانه، لا ينقص شيئا !.

لكنّ التاجر لم ييأس .. فقد أخذ يصرخ هذه المرّة، وهو يحلف بأغلظ الأيمان:

- منْ يدخّنُ منْ هذا التبغ لا يعضّه كلب!

– من يدخّن منْ هذا التبغ لا يسرق بيته سارق !

- من يدخّن مِنْ هذا التبغ لا يشيخ أبدًا! أنا أقسم على ذلك.. أقسم.. أقسم!!
وحين سمع الناس ما سمعوا، ورأوا أنّ التاجر يمعن في امتداح بضاعته، أقبلوا عليه يشترون، ويشترون حتى فرغ الكيس، وانصرف التاجر ظافرًا!

مرّت سنة كاملة، ورجال المدينة الجميلة قد تغيّروا.. بُحّت أصواتهم، وشحُبت وجوههم، وفترت هممهم، وقلّ نشاطهم، كانوا يسعلون إذا مشوا، ويسعلون إذا وقفوا، يلهثون في الطرقات، مرض معظمهم، لقد تغيّروا كثيرًا!!

وأبصر واحد من أهل المدينة، ذلك التاجر في السّوق، فأمسك به يجرّه من ثوبه، كان يريد أن يفضحه لأنه خدع الناس، وحلف أيمانا كاذبة..

قال له: أيّها التاجر الظالم، أيّ أذى ألحقته بنا!! انظر حولك؟!انظر حولك لترى ما حلّ بنا بسبب تبغك الملعون! ثم كيف تقسم كاذبا!!

قال التاجر بخبث لم يكن قسمي كاذباً ..

- أتعرف لماذا لا يعضّ الكلب مدخناً لأنّه سيكون متوكئاً على عصا. والكلب يخاف من العصا وحامل العصا.

- ولماذا لا يسرق داره سارق، لأنّ سعال المدخن لا ينقطع طوال الليل، فيظنّ اللص أنه مستيقظ .

- أمّا لماذا لا يشيخ، فالمدخن لن يعيش حتى الشيخوخة!!

وابتسم جدّي، حين وصل إلى ختام حكايته، وابتسمتُ مثله ابتسامةً واثقةً، وقلتُ بحزم:- مَنْ لا يدخّنُ يظلّ قوي الجسم، لا يعضّه كلبٌ، ولا يجترئُ عليه سارقٌ ولا يشيخ!. بلْ يحيا عمره مبتهجا سعيدًا.

شدّ جدّي على يدي وقال: - ومَنْ يسألْ يتعلم!

❊ ❊ ❊

في دارنا ثعلب

تحت عريشة العنب، فوق المصطبة الحجرية المشرفة على باحة الدار لكبيرة، كان جدّي يجلس كل مساء. وتعدّ جدّتي القهوة، وتهيئ المساند والوسائد، ثم تأمرنا بحزم قائلةً:

- العبوا هناك، قرب السّور. العبوا بهدوء! كنّا نقفز كالعفاريت، نعرض مهاراتنا في الجريِ والوثبِ والتسلق من شجرة التوت إلى بوابة الدار العريضة، إلى خمّ الدّجاج. بعضنا يحمل على كتفه خشبة كأنها بارودة العسكر، أو يمتطي قصبة طويلة كالحصان، يمشي بخطوات الفارس:

- واحد .. اثنان، واحد.. اثنان.

أو يرتفع صهيل متقطّع: - هي هي.. هي هي.. هي هي..

أمّي تبتسم، وجدّتي تبتسم، وربّما جدّي أيضاً يبتسم. كان يُسْعِدُه أن يرانا حوله، يحتضن أحفاده الصّغار، يزحف إليه محسن، وتركض نحوه فاطمة، ويتمسّح به هاني، وهو بهيبته ووقاره يربّت على أيديهم أو يداعب رؤوسهم.

عناقيد العريشة تتدلّى فوقنا كالمصابيح، حبّات العنب كبيرة لامعة، تشفّ عمّا فيها من عصير سائغ رقراق.

تقول لنا أمّي: تعالوا يا أولاد، ذوقوا هذا العنب،إنّه من فاكهة الجنّة! نلتقط الحبّات النّاضجة. نتلذذ بالعنب الشهيّ، نرى في لونه الأحمر ما يثير النفس، ويحرّك اللعاب. لقد أَحْبَبْنا هذه العريشة، أحببنا ظلالها الوارفة، وثمارها اللّذيذة. أحببنا أمسيات الصيف في الدار الكبيرة.

جدّتي بثوبها الأزرق المنقط بزهور بيض صغيرة، تروح وتجيء، تسقي شجيرات الورد، وشتلات الزنبق والياسمين، فيمتلأ الجو بعبق أَريجُ عطر، وواجهة البيت تتألق

بحُمْرةِ الغروب ، والحمام السابح في الفضاء يمدّ أجنحته البيضاء حبا وسلاما، ويطير في دورانه المَرِح سعيدًا، قبل أن يعود إلى أبراجه الطينية فوق السّطوح، ثم يأخذ بالهديل، يقدّم تحية المساء ثم يغفو آمنا..

وجاء مساء، لم يكن كما ألفناه، ارتفع صياح مزعج في باحة الدار، وعلا ضجيج وصخب. أعلنت جدّتي وهي تضع كفّها على خدّها: الدّجاجة الكبيرة اختفت! ركضت أمي وهي تصيح: والأرنب.. الأرنب الصغير الأبيض لا أثر له! قال أبي بهدوء: اسألوا جارتنا أم محمود!

ومن وراء السّور، ظهر رأس أم محمود، بدت دامعة العينين، وفي صوتها َرجْفة. قالت: الدجاجة الكبيرة، والأرنب أيضاً.. لقد فقدت منذ يومين البطة السمينة!! قال أبي: معقول..! ماذا أسمع؟

صاح أبو حمدان، وهو يطلّ من البوّابة: أنت آخرُ مَنْ يعلمُ!

ردّ عليه أبي: - ما هذا الكلام، يا جارنا..؟!

أكمل أبو حمدان ساخراً الثعلب يشنّ غاراته، وأنت لا تدري!

نظر أبي إليه بقلق، وهو يتابع حديثه: الحِمْلان عندي نقصت اثنان رضيعان وها قد جاء دورك! دجاجة، ثمّ أرنب. انتظر. وغداً منْ يدري، ربّما يصل الأمر إلى الصّغار!

أسرع أبي والغضب يسيطر عليه، حمل فأسه، ثم ركض باتجاه الدّغل القريب، ركضت وراءه أمّي وهي تحمل فأسا صغيرة أيضا، ركض إخوتي.. لحق بهم أبو حمدان، ثمّ زوجته، ثمّ أمّ محمود وزوجها، وأبو خالد، حتى جدّتي وصلت إلى أوّل الدّغل وهي تلهث.

وقفوا هناك، تشاوروا.. ارتفعت أصواتهم، مِنْ هُنا.. بل منْ هُنا.. كثر صياحُهم، وقفت النساء إلى جانب أزواجهنّ، كلّ امرأة بجانب زوجها، تؤيدّه، ملأ

الفضاء ضجيج وكلام كثير غير مفهوم.. تطاير السّبابُ ..تطايرت الشتائم.. من هنا.. ومن هناك.. اشتعل نقاش بين أبي وجارنا..

أبو حمدان يقول: قلت لك: الثعلب يمرّ من هذا المكان!

ردّ أبي: أنت مخطئ، منْ هنا يمرّ..

يجيب أبو حمدان: انظر.. هذه آثار أقدامه..

يسخر أبي: غلطان، هذه ليست آثار أقدام ثعلب!

- أنت أصغر منّي ولا تعرف شيئا !

- بل أنت لا تعرف، وتريد أن .. !!

وجذب أبي ثوب جارنا، وجذب أبو حمدان ثوب أبي، تشابكت الأيدي، وارتفع صياح النساء. وامتدت الفؤوس، لكنّ جدّتي صاحت بحزم:

– عيب.. ما هذا؟!

نظرت إلى أبي، ثمّ إلى جارنا أبي حمدان، وقفتْ بينهما:

- تتعاركان بدون سبب! هل هذه طريقة تقضون فيها على الثعلب! واخجلاه!! انسحب أبي من المعركة، وانسحب حمدان أيضاً. ساد الهدوء، وقد وقفا بعيدين، كديكين لم يكملا القتال.. كانا خَجِلَيْن.. وجدّتي بينهما حزينة..

وعند المصطبة. وأمام جدّي الذي لم يغادر مجلسه تعانقا، كان أبو حمدان هو الذي أسرع إلى أبي يضمّه إلى صدره، ويلعن الشيطان.

قال جدّي بهدوء: - يؤسفني ما حصل، كَثْرةُ الأقوال تبطل الأفعال، الثعلب ماكر، وأنتم تتشاجرون، ولم تفعلوا شيئاً حاسماً! هكذا نحن، نختلف ونفترق، فينتصر عدوّنا. وأمام الجميع. وضع جدّي بين يديّ أبي فخّا، ونظر إلى عينيه مباشرة، وتمتم بحَزْم:

- انصبه جانب السّور، قريباً من خمّ الدّجاج، ولا تنسَ السلسلة اربطها إلى جذع الشجرة، فالثعلب ذكيّ وقوي، يعرف الطريق إلينا جيّداً!

مرّت تلك الليلةُ، ولا حديثَ لنا إلاّ غارات الثعلب النّاجحة، تذكّرنا بطّةَ أمّ محمود السمينة؛ كيف سحبها الثعلب؟ كم كانت وديعة طيّبة، تسوق صغارها. ثم تتهاوى فوق مياه البركة كالسّفينة!.. تذكّرنا الأرنب، أو كرة القطن المنفوشة، وهو يتدحرج في الباحة هنا وهناك ودجاجتنا الكبيرة التي تطير فوق السّور.. أما كان بإمكان الديك المتعجرف أن ينقذها من مخالب الثعلب المهاجم؟! تذكّرنا الحِمْلان الصّغيرة التي ظفر بها.. هل كانت تثغو وهي بين يديه، أم أنّ منظر الثعلب أخرسها؟ ليس هناك أمانٌ.. دجاجاتنا السارحات تلتقط الحبَّ وهي خائفة، صارت كثيرة التلفّت والمراقبة، الطيور والعصافير لا تبتعد عن أعشاشها، حتى الحَمامُ أوى إلى أبراجه دون أن يرفعَ هديلَه إلينا، أو يرقص في دورة المساء، حتى الأرانب اختفت وهي ترتجف.. فالثعلب يشنّ غاراته الليلية، ولا يترك خلفه إلاّ الريش.

حتى ألعابُنا توقّفتْ، وجدّتي نبّهتْ: ابتعدوا عن السّور. تلك أوامرُ الجدّ!!

كنّا نلمحُ سلسلةً طويلة تمتدّ من شجرة التّوت، ثم تغوصُ قريباً من السّور.. لكن أحدًا لم يقتربْ منها. صار مجلسُنا جميعاً، فوق المصطبة، في حَضْرة الجدّ، الذي يسعده وأن يرانا حوله.. أنا.. ومحسن، وهاني، وفاطمة ..وإخوتي بينَ يدَيْه.. وقد اتكأ على وسادة فوقها صور فراشات وأزهار، والقمر لم يصعد، بعد، إلى قبّة السماء، والهدوء الشّامل يلفّ الدّار.

وعلى غير انتظار، مزّقَ الصّمتَ صَرْخَةُ حيوانٍ حادّةٌ، تشبه نباح كلب، كانت صرخة واحدة، انطلقت منْ جانب السّور الحجريّ، أو تحت شجرة التّوت، رأينا جدّي ينهض بهمّة الشباب، وفي عينيه بريقُ النّصر، على الرغم من أنّ الصّرخة، هذه المرّة، امتدّت طويلة، لكنّها لم تكن نباحاً، بل عواءً متميّزاً بعث فينا القلق والخوفَ.

- عوو .. وو.. و.. عوو.. و.. و.. أعقبتها مباشرة قوقأة الدّجاجات، خائفة مرتعدة وركضنا وراء جدّي، الذي اندفع إلى مصدر العواء، وعصاه الغليظة في يده.

كان هناك ثعلب كبير.. لم أرَ مثلَه في حياتي، وقد أمسك الفخّ بأحد مخالبه، وبدا مقوّس الظّهر يحاول استخدامَ أرجله الثلاث الطليقةِ في تحرير الرّجل المقيّدة. وأمام جدّي راح يقفز بجنون، يحاول التخلص أو سحب الفخّ المربوط بسلسلة طويلة، إلى جذع شجرة التوت.

ارتجفت الأوراق والأغصان.. ارتجفت الدجاجات في الخمّ.. ارتجفنا- نحن الأولاد- أمام قفزات الثعلب المجنونة.. كان يعضُ الفخَّ بقسوة، وعيناه تلمعان بالغضب.. لكنّ جدّي وحده الذي لم يكن خائفاً..دفعَ عصاه الغليظة نحو رأس الثعلبِ مباشرةً، فتوقّفَ عن قفزه.. كان مستسلماً مخذولاً.. ولولا تلك السلسلة لكان قد فرَّ بالفخّ بعيدًا.

جاء أبو حمدان،جاء أبو خالد، وجاءت أم محمود، والجيران جميعاً.، كانوا سعداء وهم يرون الثعلب الأسير الذي وقع في فخّ جدّي هادئاً مهزوماً.

التمعتْ في عيونهم نظراتُ المودّةِ والحبِّ والعرفان، أحاطوا بجدّي، غمروه بمحبّتهم. وجّهزّتْ أمي الشاي المعطّر بالنعناع، دارتِ الأكوابُ، وارتفع هديل الحمام ناعماً شجيّا.

قالتْ جدّتي: أرأيتم، يا أولادي، الذي يعمل لا يتكلّم.

نحن نكسّبُ ما نريدُ بهدوئنا وعزيمتنا، بوحدتنا لا بخصامنا، بأن نعقل ونتوكل على الله، لا بالكلامِ والشّجار والثرثرة.وكان جدّي ينقل أنظاره بيننا، واحدًا واحدًا، ويبتسم. واليوم، إذا زرتم دارنا الكبيرة، ودخلتم مضافة جدّي الفسيحة الرحبة، تستقبلكم رائحة القهوة. وسوف تتعلق أعينكم بالجدار الكلسيّ هناك، وستلمحون فوق الجدار سيفا بغمده- هو سيف جدّي- وإلى جانبه فراء ثعلب كبير.

* * *

الناقة



حدث رجل هذه القصة فقال:

كان لدي قطيع من الإبل، وذات يوم ربيعيٍّ جميل، خرجت إلى المرعى أتفقد إبلي، فرأيتها سمانا، يكاد يتفجّر الحليب من أثداء النياق، خاصة إذا اقتربت من الناقة ابنها الصغير، فحمدت الله تعالى على هذا الخير والبركة.

ونظرت إلى ناقة لي، كنت أوثرها على كل القطيع،وأحبها كثيرًا، فوجدت صغيرها يرضع منها، وحليبها يتساقط على الأرض من شدّة تدفقه. قلت في نفسي:

- لي جار فقير، عنده أربع بنات، فلماذا لا أتصدق بهذه الناقة ووليدها له، يعيش من لبنها هو وبناته. والله تعالى يقول في كتابه الكريم "لن تنالوا البّر حتى تنفقوا مما تحبون" آل عمران - آية ٩٢".

سقت الناقة ووليدها يسير خلفها إلى بيت الجار، وطرقت الباب ..

- أيها الجار الطيب، إنّ الله أنعم عليّ بوفرة الرزق، ولا يكمل إيماني وأنت جائع، وقد قررت أن أهديك أفضل النياق عندي وأحبها إلى نفسي ومعها وليدها، تعيش من حليبها أنت وبناتك.

بارك الله فيك أيها الجار الطيب، إن الله سيجزيك عنا خيرا،فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

وراحت بنات الجار يرقصن ويمرحن حول الناقة، والكبيرة منهن تطلب من أخواتها الدعاء لي بالخير وحسن الثواب.

وكنت أرى الجار يشرب من لبنها ويبيع منه، ويحتطب على ظهرها، وينتظر أن يكبر وليدها ليبيعه وينتفع بثمنه. وكلما رآني دعا لي بالخير وحمد الله.

وحين رحل الربيع، وحلّ الصيف بقحطه وجفافه، وتشققت الأرض، بدأ البدو يرتحلون بحثا عن الماء والكلأ .



وارتحلت مع أبنائي الثلاثة، وقطيع الإبل الذي نملكه،نقطع الصحراء بحثا عن الماء في الحفائر، والكلأ في الواحات، وطالت بنا الطريق.



وجدت حفرة كبيرة، دخلت فيها أبحث عن الماء. وتهت في سراديبها، ولم أستطع الخروج.

وكان أبناء الرجل ينتظرون في الخارج، وحين حلّ المساء، أجمعوا على أن والدهم لن يعود، ولعله قد مات من لدغة أفعى، أو من سقوط من مرتفع، أو لعله غرق في الماء. وفرح الأبناء لمصير والدهم الذي كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، ليستولوا على ثروته، ويوزعونها بينهم، ويعيش كل منهم على هواه.

قال أحدهم: علينا أن نستعيد الناقة ووليدها من جارنا أولا، ونعطيه بدلا منها جملا أجربا. وإن رفض، نأخذه غصبا .

ذهب الثلاثة إلى الجار وقالوا له: أعد لنا ما أهداك والدنا، وخذ بدلا من الناقة ووليدها هذا الجمل الأجرب.

قال الجار: كيف أعيد هدية والدكم. لن أعيدها إلا إذا طلبها.ثم إنني أعيش مع بناتي على حليبها، والتحطيب على ظهرها.

قالوا: لن يطلبها والدنا فقد مات.

قال: وكيف مات؟

قالوا: دخل حفرة في الصحراء يبحث عن الماء، ولم يخرج.

قال: دلوني على الحفرة، وسأعطيكم الناقة ووليدها، ولا أريد الجمل منكم.

أخذوه إلى مكان الحفرة، وكان الرجل قد أخذ معه حبلا متينا قويا وشعلة. وتركوه وعادوا، وهم واثقون أنه سيهلك ويلحق بأبيهم. ربط الرجل الحبل بحجر كبير خارج الحفرة، وأشعل الشعلة، ودخل الحفرة، وراح يزحف على قفاه مرّة، وعلى بطنه أخرى، حتى وصل إلى مكان بدأ يشعر فيه بالرطوبة، ثم بدأ يسمع أنين جاره، ثم رآه على ضوء الشعلة، فزحف إليه، وراح يجرّه قليلا قليلا، ويدور كي يلتفّ الحبل حول وسطه ويقصُر. إلى أن خرج من الحفرة. وأسقى جاره قليلا من الماء وأطعمه بضع تمرات. ثم حمله على ظهره، وعاد إلى بيته، وراح يعتني به هو وبناته، إلى أن تماثل للشفاء.

ذات يوم سأله: أخبرني بالله عليك عما حدث معك! وكيف بقيت حيا لمدة أسبوع؟

قال الرجل: سأحدّثك حديثا عجبا، حين تهت في الحفرة، ووصلت إلى حيث وجدتني، قلت أعيش على الماء حتى يحين فرج الله أو قضاؤه، وبقيت على ذلك ثلاثة أيام، ولكنّ الجوع لا يرحم فشعرت بدنو الأجل، وبينما أنا مستلق على ظهري، شعرت بلبن يجري على لساني. ورأيت إناء يقترب مني قي الظلام، فأشرب منه لبنا حتى أرتوي، ثم يختفي. وكان يأتيني كل يوم ثلاث مرات، ولكنه لم يأتني منذ يومين.

قال له الجار: أتدري لماذا اختفى الإناء، لقد جاءني أبناؤك قبل يومين، وأخذا مني الناقة، مقابل أن يدلوني على مكانك، وفعلوا ذلك وهم واثقون أنني هالك مثلك لا محالة. ومن ساعة أخذوا ما أهديتني،انقطع عنك لبن الناقة الذي كان يسقيك الله منه، فالمسلم في ظل صدقته.

قال الرجل: وما حال أبنائي ؟

قال الجار: لقد اقتسموا كلّ ما تملك، وراحوا يعيشون على هواهم، وقد باعوا بعض الإبل، ويصرفون المال بغير حساب.

قام الرجل من فوره، وطلب من جاره أن يوصله إلى بيته قائلا: علني أنقذ ما يمكن إنقاذه، قبل أن يضيع كل شيء.

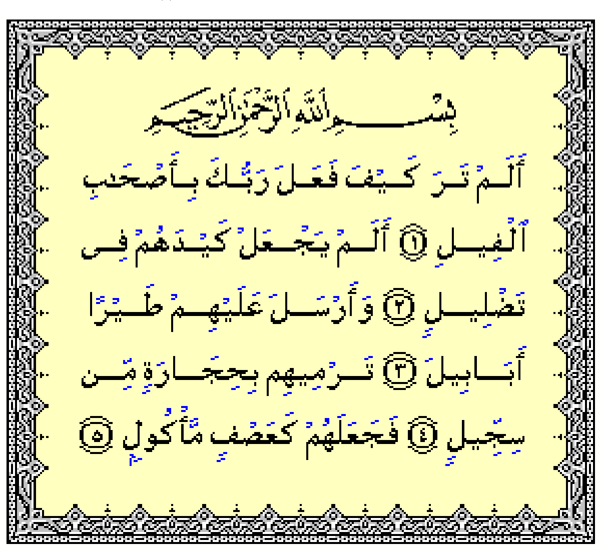
جمع أبناءه حين عادوا إلى البيت مساء وقال لهم:

- بئس الأبناء أنتم، وبئس ما فعلتم، أهكذا تكون طاعة الله، ووصيته بالوالدين؟! إنّ السيئة تجزى بسيّئة مثلها! خذوا أمتعتكم فقط، وارحلوا من هذا البيت، فلا محلّ لكم فيه بعد هذا اليوم.

وطلب الرجل من جاره أن يرعى بالإبل ويعتني بها وله نصفها، وعاشا معا بالرضا والقناعة، يساعدان كل محتاج، ويحمدان الله على نعمائه.

* * *

قصة أصحاب الفيل



كان ملك الحبشة قد استولى على أرض اليمن، وولى عليها حاكمًا من الأحباش يقال له [أبرهة الأشرم]، فأقام أبرهة الأشرم يحكم اليمن ويخضعها لسلطانه بقوة جيشه .

وكان كثير من أهل اليمن إذا اقترب موسم الحج يخرجون إلى مكة ليحجوا إلى الكعبة المشرفة، ويؤدّوا المناسك حسب التقاليد التي تعارف عليها الناس في الجاهلية.

ورأى أبرهة خروج قوافل الحجاج فسأل عن ذلك، فقيل له: إن للعرب بيتاً يعظمونه ويحجون إليه كل عام، وهو في مكة.

خطرت في ذهن أبرهة فكرة فعزم على تنفيذها، فقد أراد أن يبني كنيسة عظيمةً في صنعاء، ويبالغ في بنائها وزخرفتها، ليصرف الناس عن الحج إلى الكعبة.

استشار أبرهة بعض المقربين إليه فوافقوه على فكرته، وعلى الفور شرع باستقدام المهندسين والبنائين، وبدأ البناء، حتى كان بناء سامقا قويا مزخرفًا جميلاً، وأطلق عليه أبرهة اسم [القليس]، وقد كلفه هذا البناء مالاً كثيرًا.

وكتب أبرهة إلى ملك الحبشة يخبره بما فعل. ثم إن أبرهة أمر جنده وأعوانه أن يدعوا العرب إلى الحج إلى القليس بدلاً من عناء السفر إلى الكعبة. لكن العرب حينما سمعوا ذلك استهزؤوا بأبرهة وبالقليس، فكيف يتركون بيت أبيهم " إبراهيم عليه الصلاة والسلام " ، ليحجوا إلى كنيسة أبرهة؟

وبلغ الأمر أن أحد هؤلاء العرب تسلل إلى القليس خفية فأحدث فيه، ولطخه بالنجاسة، فلما بلغ الخبر أبرهة غضب غضبا شديداً، وأقسم أن يهدم الكعبة.

فأصدر أوامره إلى الجيش ليتجهز ويستعد للمسير إلى مكة، وأمر قادته أن يجهزوا الفيلة بالإضافة إلى الخيل والجمال، فالفيل حيوان ضخم قوي، يمكن أن يركبه عدد كبير من الجند، ويقاتلوا من فوقه بكفاءة وقوة.

وحين تم الاستعداد، تقدم أبرهة وأمر الجند أن يتبعوه، وفي المسير الطويل باتجاه مكة المكرمة، وكان جيش أبرهة كلما مرّ على قبيلة من قبائل العرب أغار عليها، ونهب أموالها وأغنامها وإبلها لتكون زاداً لهم في طريقهم. وكانت بعض القبائل قد سمعت بمسير أبرهة وجيشه فأخذت حذرها، وفرّت من أماكنها، وبعض هذه القبائل عرضوا على أبرهة وجيشه المساعدة والإمداد، رغبة منهم في اتقاء شره.

واصل أبرهة المسير بجيشه حتى بلغ منطقة قريبة من مكة، فأقام فيها، وأرسل فرقة من جيشه فأغارت على الإبل والأغنام التي كانت ترعى بين الشعاب والجبال، ورجعت بها غنيمة باردة إلى معسكر الجيش.

علم أهل مكة بالأمر، وتشاوروا فيما بينهم، ماذا يفعلون؟ لكنهم كانوا عاجزين عن مقاومة جيش الأحباش، فهم لا يملكون جيشا منظمًا، وليسوا مدربين التدريب الكافي، كما أن عددهم قليل بالقياس إلى جيش الأحباش، وزاد من خوفهم ما سمعوه عن الفيلة التي تحمل الجنود.

كان العرب يراهنون على شيء واحد هو أن هذه الكعبة بناء مقدس، وله حرمته العظيمة، وأن العناية الإلهية ستتدخل في الوقت المناسب.

أرسل أبرهة إلى زعيم مكة (عبد المطلب بن هاشم) يدعوه للقائه، فجاء عبد المطلب، وكان رجلاً مهيبا وقورًا، فلما رآه أبرهة أكرمه، ونزل عن عرشه حتى استقبله وجلس معه، وبدأ يسأله قائلاً: ما حاجتك؟

قال عبد المطلب: إن جندك أخذوا لي مائتي بعير، وأريد أن تردوها عليّ.

قال أبرهة: قد كنت عظمتك حين دخلتَ، ولكنني الآن زهدت فيك.

قال عبد المطلب: ولِمَ أيها الملك؟

قال: لقد أتيتُ لأهدم هذا البيت الذي هو دينك ودين آبائك وأجدادك، وها أنت لا تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير؟

قال عبد المطلب: أما الإبل فأنا ربُها (أي صاحبها)، وللبيت ربٌّ يحميه.

أمر أبرهة بردّ الإبل على عبد المطلب، فلما استردّ إبله رجع إلى مكة، وأمر أهلها أن يتفرقوا في الشعاب والجبال، ليأمنوا على أنفسهم مما قد يفعله جيش الأحباش، ثم وقف عبد المطلب على باب الكعبة وأمسك بحلقته وأخذ يدعو قائلاً:

اللهمّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك. وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك. لا يغلبنَ صليبهم ومحالهم أبدًا مِحالك."المِحال: الكيد والمكر"

وفي الصباح تهيأ أبرهة وجنده لهدم الكعبة، وبينما هم كذلك إذ برك الفيل الأكبر على الأرض، وكانت بقية الفيلة لا تمشي إلا وراءه، فحاول الجند أن ينهضوه ويوجّهوه نحو الكعبة لكنه أبى، فلما وجهوه نحو اليمن قام يهرول، ثم وجهوه ثانية نحو مكة فبرك على الأرض. وانشغل الجند بهذا الفيل.

وفي أثناء ذلك أرسل الله سبحانه عليهم طيراً أبابيل، تأتي مسرعة فتمر من فوقهم، ومعها حجارة صغيرة تلقيها عليهم، فكلما أصابت واحدًا منهم هلك وسقط على الأرض ميتا، فلما رأى الجند ذلك ولوّا هاربين لا يلوون على شيء، وظلت الطير تلاحقهم حتى قتل كثير منهم، وأصيب أبرهة فالتف حوله بعض الجنود، وحملوه على دابة، والألم يشتد عليه، فلما وصل إلى صنعاء مات.

وهكذا رجع جيش الأحباش خاسئا ذليلاً مشرّداً، بعد أن خسر قائده وأكثر جنده، ورجع أهل مكة إلى كعبتهم يطوفون حولها بإجلالٍ وتعظيم، مستشعرين هذه النعمة العظيمة، حيث ردّ الله عنهم كيد هذا العدو الذي أراد هدم كعبتهم. واتخذ العرب من ذلك العام تاريخا يؤرخون به، لأن حادثة الفيل من أعظم وأعجب الحوادث التي رآها العرب في حياتهم. فسموه "عام الفيل".

وفي ذلك العام حدث ما هو أعظم وأعجب، لقد حدث شيء غيّر الدنيا بأسرها، ذلك هو - مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم - .

* * *

الفوز العظيم

كانت " هادية« أصغر الأبناء في الأسرة، وكان أشقاؤها يداعبونها بقسوة،

ويتعاملون معها بعنف. وضاقت بتلك، ونقلت إلى أمها شكواها عن أشقائها، واكتفت الأم بأن عاتبتهم في رفق، فلم يكفوا عن عبثهم.

وحدّثت هادية أباها في الأمر، فنهر إخوتها ولامهم على سوء تصرفهم، ومع ذلك لم يرتدعوا ولم ترغب الصغيرة في مواصلة الشكوى، خاصة وهمم يرددون على مسامعها كلمات تجرحها مثل " أنت طفلة". وكانت في البداية تحس بغضب شديد، فتدمع عيناها، ويزيدهم ذلك رغبة في مزيد من العبث والعناد، لذلك دربت نفسها على أن تبتعد عنهم. فما إن تحس أنهم على وشك ممارسة هوايتهم في إغاظتها حتى تسارع إلى غرفتها، لتغلق على نفسها الباب، ولا تغادر المكان إلا بعد انصرافهم، أو عودة الأم أو الأب من الخارج.

تكرر عبث الإخوة مع شقيقتهم، مما جعلها تذهب كثيرًا إلى غرفتها وتغلق على نفسها الباب في ضيق وحزن. وطال وقت مكوثها وحيدة لا تفتح لهم إذا هم طرقوا الباب، بل كانت في أحيان عدّة لا تردّ عليهم عندما ينادونها، ويحاولون أن يعتذروا إليها، وبأنهم لن يعودوا لمضايقتها.

كانت تعرف جيدًا أنهم سيسكتون عنها قليلاً، ثم يعودون لعادتهم السخيفة، وساعتها تضطر للرجوع إلى غرفتها حيث تبقى فيها وحيدة حزينة، لا أحد يدري ما تفعله. وكان الإخوة محبين للاستطلاع، يحاولون أن يعرفوا ما تفعله أختهم وهي وحدها في غرفتها، لكنهم أخفقوا، فما قالت لهم ولا استطاعوا هم من جانبهم أن يروا ما تصنعه. إذ كان يسود الغرفة - بعد أن تغلقها - سكون عميق، أو يسمعون همهمات لا يتبيّنون ما هي. وكانوا يتصورون أنه صوت بكائها، أو شكواها منهم. واستمر لشهور طويلة، تأكدّ فيها الإخوة أنها تقاطعهم، أو تحاول أن تبتعد عنهم، ولا تريد أن تشاركهم في لعبهم ،ولا ترغب في أن تتبادل معهم الحديث.

بدأ الإخوة يشكون "هادية" إلى الأم، التي أبدت دهشتها، لما انقلب الأمر، فقالت لهم: إنها أراحت واستراحت، ويكفي أنها ما عادت تزعجكم، وتركتكم ملاحقتها .
وتناست الأم الأمر، إلى أن جاءتها هادية يوماً تقول:

- أمي، سوف أدخل مسابقة حفظ القرآن الكريم .

سألتها أمها: ماذا؟! هل تحفظين بعض سوره ؟

قالت هادية في ثقة: بل كل سوره وآياته.

تطلعت الأم إليها في دهشة شديدة، فقد كانت تعرف أنها طالبة ممتازة، متفوقة في دراستها العادية، وتحفظ القليل مما تيسر من آي الذكر الحكيم.

قالت هادية: لقد كنت يا أمي أكاد أنفجر غيظا وحنقا من أشقائي وعبثهم وعندما كنت أغلق على نفس الباب كنت أبكي طويلاً. وذات مرة امتدت يدي إلى كتاب الله أتلو منه. فهدأت نفسي، ورأيتني أقبل عليه وأحفظ آياته، حتى استطعت أن أحفظه كله عن ظهر قلب.

تقدمت هادية للمسابقة وفازت بها،كان ذلك هو [الفوز العظيم]. فقد استطاعت الصغيرة أن تحوِّل لحظات الضيق إلى أجمل ساعات العمر، ونجحت في أن تنفض عن نفسها الحزن لتعيش مع آيات الله أفضل الأوقات وأحلاها.

* * *

إنّما المؤمنون إخوة

كان سامي من أكثر الأولاد المشاغبين في المدرسة، فقد كان يظلم الأطفال

الصغار ويأخذ طعامهم ويضربهم حتى أصبحت المدرسة كلها تكره سامي وتتقي شره، بالإضافة إلى أنه تلميذ غير نشيط يأتي متأخرًا إلى المدرسة. ودائمًا يتعرّض إلى عقاب المعلمة لأنه كسول ومشاغب، وعلى العكس كان أحمد تلميذًا مجتهدًا يحفظ دروسه وينهض نشيطاً إلى مدرسته، وقد نال تقدير المعلمة ورفاقه.

في يوم من الأيام كرمت المعلمة أحمدًا، لأنه نال أعلى الدرجات وأعطته وساما كي يضعه على صدره لأنه تلميذ نشيط، ففرح أحمد وشكر المعلمة ولكن سامي لم يسرّ لما فعلته المعلمة مع أحمد، وأعجبه الوسام وقرّر أن يأخذه عنوة منه. وعندما كان أحمد عائدًا من المدرسة، إذا بسامي يعترض طريقه ويطلب منه أن يعطيه الوسام الذي على صدره،

قال له أحمد :هذا الوسام أعطته المعلمة لي لأني أنجزت واجباتي. فلماذا أعطيك إياه؟

ولكنّ سامي هاجمه وأخذ الوسام عنوة ، فحزن أحمد أشد الحزن. ومرّت أيام متتالية لم يأت فيها سامي إلى المدرسة، وفرح معظم الأولاد لعدم قدومه، وتمنوا لو يغيب عن المدرسة إلى الأبد. لكن أحمد قلق عليه لتغيبه الطويل..

وقال لرفاقه: يجب أن نزور سامي في بيته حتى نطمئن عليه، لعله مريض !

فأجابه رفاقه: سامي لا يستحقّ منا أن نزوره، ونحن على ثقة أنه ليس مريضا، بل يهرب من المدرسة ليقضي الوقت في التسكع هنا وهناك.

فقال أحمد: ولكني سأذهب.

فقال له عامر: سأذهب معك يا أحمد .

وفعلاً توجه أحمد وعامر إلى بيت سامي، وعندما طرقا الباب فتحت لهما أم سامي وهي تبتسم وعندما سألاها عن سبب تغيب سامي عن المدرسة، أجابتهما بحزن

أن سامي مريض ولا يستطيع النهوض من السرير من شدة الإعياء، فطلبا منها أن يزوراه، فرحبت بهما وأدخلتهما إلى غرفته .

كان سامي متعبا، ويبدو عليه المرض وعندما رأى أحمدًا وعامرًا بدأ يبكي ويقول لهما: أرجو أن تسامحاني على ما فعلت بكما.

فقال له أحمد: الحمد لله على سلامتك، لا تقلق إني أسامحك لأننا مسلمون، والمسلم يسامح أخاه المسلم . حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون:٩٦] .

وتعانق الأصدقاء، وعندما أراد سامي أن يعيد الوسام إلى أحمد،

قال له: بل سيبقى هذا الوسام لك، رمز الصداقة التي تجمعنا.

* * *

جزاء الإحسان الإحسان

ذات مساء قالت الأمّ لابنتها الصغيرة مريم: في الصباح سوف أذهب إلى الوحدة الصحيّة القريبة، فغدًا موعد أخيك "يوسف" لأخذ طعْمَ شلل الأطفال.

قالت مريم: وما هو هذا الطعم يا أماه؟

قالت الأم: إنه نقاط دواء تؤخذ بالفم، وتعطي مناعة للأطفال ضد هذا المرض الخطير. وعندما كنت في مثل عمره أخذت هذا الطعم، وأخذت جرعات منشطة له.

قالت مريم: ما هو هذا المرض يا ماما؟ وما مدى خطورته؟

قالت الأم: إنه مرض شلل الأطفال يا "مريم"، وقد اكتشفه عالم كبير كان مهتما بالأطفال وصحتهم، واسمه "سولك". وهو عبارة عن فيروس دقيق يصيب الأطفال. وهو مرض خطير؟ لأنه يجعلهم عاجزين عن الحركة، فلا يستطيعون المشي أو الجري أو اللعب.

قالت مريم بلهفة: أسرعي يا ماما لكي يأخذ أخي "يوسف" هذا الطعم، فإنني أحبّه وأخاف عليه، وأحب اللعب معه كثيراً.

قالت الأم: جميل يا "مريم" أن تحبي اللعب، فاللعب مفيد جدًا للأطفال، والأجمل أن تحبي اللعب مع أخيك الوحيد "يوسف".

قالت مريم: وماذا تريدين منى أن أفعل يا ماما؟

قالت الأم: سوف استيقظ مبكرًا حتى أستطيع اللحاق بالموعد. فلا تقلقي لأنني لن أتأخر.

قالت مريم: حاضر يا ماما، لن أقلق ولن أخاف.

في الصباح خرج والد "مريم" لعمله كالمعتاد، كما خرجت الأم لموعدها في العيادة الصحية، قبل أن تستيقظ الصغيرة من نومها.

اقتربت القطة منها تحاول إيقاظها، وهي تدفع بقدمها الصغير كتف " مريم" وتقول لها: مريم ... مريم ... استيقظي يا مريم. وبعد محاولات لم تملّ القطة من تكرارها استيقظت " مريم" وقالت للقطة ومازال النوم يغالب عينيها:

- ماذا تريدين أيتها القطة؟

قالت القطة بتوسل: إنني جائعة وأريد أي شيء آكله.

قالت مريم باندهاش: جائعة !! وماذا أستطيع أن أفعل لك أيتها القطة المسكينة؟ قالت القطة وهي تكاد أن تفقد الأمل في إيجاد أي طعام: - أرجوكِ يا " مريم"، أرجوكِ أريد أي طعام، فإنني أكاد أن أموت من الجوع.

اغرورقت عينا " مريم "بالدموع لمنظر القطة الجائعة وقالت لها: - سامحيني أيتها القطة المسكينة، لأنني بمفردي في المنزل حيث أن ماما ذهبت لكي تعطي الطعم لأخي " يوسف"، حتى لا يصيبه مرض شلل الأطفال، ويستطيع اللعب معي. وأنا لا أعرف ماذا أفعل لك؟

قالت القطة: أرجو أن تحاولي .. أرجوكِ يا " مريم".

قالت مريم: سوف أبحث لكِ عن أي شيء داخل الثلاجة، علني أجد لك ما يسد رمقك، ويخلصك من هذا الجوع القاتل.

قالت القطة بلهفة: - بسرعة يا " مريم"

ذهبت " مريم" إلى المطبخ، وأخذت تبحث في كل مكان عن أي شيء تستطيع أن تقدمه للقطة الجائعة، لكنها لم تجد شيئا. وعندما همّت بالعودة إلى القطة، تذكرت أن ماما قالت لها بالأمس أنه يوجد بالثلاجة قليل من اللبن سوف يشربه أخوها " يوسف" بعد تعود.

قالت مريم للقطة: أيتها القطة المسكينة، لا يوجد بالمنزل سوى قليل من اللبن، وهو طعام الإفطار لأخي " يوسف"، ولا أستطيع أن أتصرف فيه لأن ذلك قد يغضب ماما.

قالت القطة بتوسل: أرجوكِ يا " مريم" دعيني أشرب اللبن، ولن تغضب منك ماما أبدًا لأنك فعلت خيرًا ولا يغضب أحد من فعل الخير.

قالت مريم: وإن لم تغضب ماما، فهل يرضيك أن يعود أخي " يوسف" ولا يجد شيئا يأكله؟ فقد يعود هو الآخر جائعا!!

قالت القطة: ماما سوف تتصرف في إطعام أخيك " يوسف" لأنها كبيرة وتستطيع ذلك. ولكن أنقذيني الآن فالجوع يقتلني.

رق قلب " مريم" الصغير لحال القطة الجائعة، فأعطتها اللبن، الذي ما إن وضعته " مريم" أمامها حتى انكبّت عليه القطة بلهفة، وشربته حتى آخر نقطة.وبعد أن فرغت وشعرت بالشبع قالت: - هذا جميل كبير منك يا " مريم سوف يطوّق عنقي وأسأل الله أن أستطيع أن أرده لكِ يوما.

قالت مريم: لا تشغلي بالك بهذه الأمور، فأنت قطة صغيرة وضعيفة فكيف تشغلي بالك برد الجميل من عدمه ؟

قالت القطة: ربنا كبير! والله خلق لكل كائن قدرة خاصة، وله تعالى هدف في خلقه لهذا الكائن، مهما كان كبيرًا أم صغيراً، سمينا أم نحيفا، طويلا أم قصيراً.

ضحكت " مريم"، ولم تجد القطة بدًّا من الاستئذان والانصراف. وحين عادت الأم قصت عليها " مريم" ما فعلت مع القطة الجائعة وما فعلته معها.

فابتسمت ماما وقالت لها: - حسنا فعلت يا " مريم" فالقطط حيوانات أليفه وتحبّ الإنسان كثيرًا، كما أنها تستطيع أن تقدّم له الكثير من الخدمات.

ضحكت مريم بصوت عالٍ أثار انتباه أمها فقالت لها الأم :

- على ماذا تضحكين يا " مريم"؟

قالت " مريم" والضحكة لم تفارق شفتيها بعد : كأنك كنت معنا يا ماما، تصوّري أن القطة قالت لي أن ما فعلته معها جميل كبير يطوّق عنقها، وسألت الله تعالى أن يقدرها فترده لي. وقد عجبت وضحكت مما قالت!

ردت الأم وهي تربت علي كتفها بحنان: - ربنا كبير يا " مريم"، ومن يدري؟فقد تثبت لك الأيام صحة قول القطة.

عادت مريم تقول: يهمني أنك لست غاضبة مني لأنني تصرفت بمفردي!

ردّت الأم بحنان: بالعكس يا " مريم" ،كنت سأكون حزينة وأغضب منك كثيرًا لو أنك فعلت عكس ذلك، وتركت القطة جائعة دون أن تساعديها. قالت مريم بفرح: يعني هذا أنني فعلت خيرًا يا ماما.

ردت ماما بسرعة: طبعاً يا حبيبتي هذا عمل خير وإحسان، ولا يضيع الله أجر من أحسن عملاً. وجزاء الإحسان الإحسان.

قالت مريم : الحمد لله، الحمد لله.

مرّت الأيام، وخرجت الأم ذات صباح لحاجة ما، وأخذت معها الصغير"يوسف"، وكانت قد نبهت ابنتها مساء الأمس كالعادة بعدم القلق لتأخرها خارج المنزل. بقليل خرج بابا للعمل،وبينما كانت"مريم" غارقة في النوم كعادتها، شعرت بشيء غريب يتحرك فوق الفراش!

استيقظت " مريم" فزعة، وازدادت ذعرًا، عندما شاهدت فأرًا صغيرًا يحاول أن يلتهم أصابعها الصغيرة ! راحت " مريم" تصرخ وتصرخ ولا أحد يسمعها، والفأر يمرح أمامها على السرير .

وصلت الصرخات إلى مسامع القطة، التي كانت تلهو بالشارع أسفل منزل "مريم"، فهرولت إلى منزل "مريم" محاولة الدخول. ولكن الباب الموصد بإحكام منعها من ذلك. لم تيأس القطة، فكرت بسرعة، وبسرعة أكبر ركضت إلى الجهة الخلفية من البيت، فوجدت شباكا كان طرفه مفتوحا . فقفزت إليه ثم إلى الداخل، وركضت إلى حجرة "مريم" والتي مازالت تصرخ والفأر يجري أمامها على السرير .

وثبت القطة وثبة واحدة كان فيها الفأر بين أسنانها ! وخرجت من الغرفة والتهمته على الفور.

بعدها عادت تهدئ من روع "مريم" وهي تقول لها:

- لا تخافي يا " مريم" لقد انتهى كل شيء.

هدأت " مريم" وقالت للقطة من بين دموعها التي مازالت تنهمر من عينيها:

- أشكرك يا صديقتي القطة، لقد رددت لي الإحسان بخير منه.

قالت القطة بفرح : هل أدركت الآن يا مريم، أن لله حكمة في خلقه؟

ضحكت مريم وقالت: نعم أيتها القطة الحبيبة! ومن الآن سنكون صديقتين رائعتين.

وحين عادت الأم، وجدت مريم تحتضن القطة وتتحدثان معا، وشاركتهما الفرحة حينما علمت بما كان.

* * *

النظافة من الإيمان

انتهى الدوام، وصحبت منى ابنة خالتها أمل إلى منزلهم، بعد أن استأذنت من والدتها بالأمس. وحين وصلتا إلى المنزل، جلست أمل تنتظر انتهاء خالتها من إعداد

المائدة، ولما كانت جائعة، فقد كانت تنظر إلى أصناف الطعام بشهوة ونهم.بينما ذهبت منى لتغيير ملابسها، وغسل يديها كعادتها قبل الأكل وبعده.

وحين عادت، كانت أمل تقف إلى جانب المائدة، وهي تلتهم أصابع ورق العنب الشهي، بيدها اليمنى، وتحمل باليسرى كوب ماء لتشرب منه.

دخلت أم منى تحمل صحن السلطة، ففوجئت بما رأت، وراحت تنظر لابنة أختها باستغراب! نظرت أمل لخالتها وقالت: ماذا يا خالتي ؟ إنني جائعة جدًا. ولم أستطع مقاومة منظر الطعام الشهي!

أخذت خالتها كأس الماء من يدها اليسرى، وقالت لها :

- من الآداب الإسلامية يا ابنتي أن تأكلي وتشربي بيدك اليمنى.
- وأن تقولي"بسم الله الرحمن الرحيم" قبل البدء بالأكل.
- وقبل هذا وذاك، كن يجب أن تغسلي يديك بالماء والصابون قبل الأكل.

فانظري ليديك الوسختين، وماذا يمكن أن يسبب لك ذلك من الأمراض! ثم إنك لا زلت في ثياب المدرسة، فعليك أن تبدّليها وتلبسي ملابس البيت التي لك عندنا، اذهبي وافعلي ذلك، ثم سنتحدّث بعد ذلك، ونحن ننتظر والد منى.

قالت الخالة لأمل بعد الغداء: - وكانتا تجلسان وحيدتين

- اسمعي يا بنيتي، إن للطعام آدابا أوصى بها الإسلام، والنبي"صلى الله عليه وسلم" ، قلت لك بعضا منها، وأزيد أن الرسول الكريم قال لغلام صغير تربى عنده وكان يأكل معه، ولا يلتزم بآداب الطعام:

- يا غلام، سمّ باسم الله، وكل بيمينك، ومما يليك.

وقال عليه الصلاة والسلام: إذا أكل أحدكم طعاما، فليذكر اسم الله، فإن نسيّ في أوّله،فليقل: باسم الله في أوّله وآخره.

وقال "صلى الله عليه وسلم": من أكل فليأكلْ بيمينه، ويشربْ بيمينه، فإن الشيطان يأكل ويشرب بشماله.

دخل والد منى البيت، وألقى عليهم السلام، فردّوا عليه جميعا، وبعد أن بدّل ملابسه، وغسل يديه ووجهه بالصابون، اقترب من المائدة باسما وقال لزوجته:

- طبخت حساء الخضار ! شكرا لك.

- قالت أمل: أنا لا أحب حساء الخضار، لا أستسيغ طعمه!

- قال زوج خالتها: لا يا بنيتي، كان الرسول" صلى الله عليه وسلم" لا يعيب طعاما، وقد طلب منا ذلك، وكان إذا أحبّ طعاما أكله، وإن لم يحببه تركه.

وحين جلسوا إلى المائدة، قال: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه، - وقال الجميع مثل ما قال - ثم بدأوا بـ - بسم الله الرحمن الرحيم - .

وبعد الانتهاء من الطعام: قال الجميع عدا أمل: الحمد لله الذي رزقنا هذا الطعام، من غير حول ولا قوّة منا .

قال الرجل: إذا انتهيت من الطعام فقولي يا أمل مثلما قلنا. وتابع: قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" - ردّد الجميع الصلاة على النبي - من أكل طعاما، ثمّ قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه، دون حول مني ولا قوّة .

غفر الله ما تقدّم من ذنبه. عاد الجميع يردّدون الدعاء، ثم قامت أمل تساعد خالتها ومنى في رفع الصحون عن المائدة، وتنظيفها.

* * *

السيدة خديجة

السيدة خديجة رضي الله عنها كانت خديجة بنت خويلد امرأة من أحسن نساء قريش، لبيبة عاقلة حازمة، وكان لها مال تتاجر به، فترسل الرجال بمالها إلى اليمن والشام، وتعطيهم أجرهم مقابل عملهم لها، وبهذه الطريقة كثر مالها، وعاشت عيشة كريمة، وكانت قد تزوجت من رجل يقال له: أبو هالة، فلما مات أبو هالة خطبها كثير من وجهاء مكة، ورغبوا في الزواج منها، لكنها رفضت ذلك. وكانت خديجة تسمع أن [محمدًا] شاب صادق أمين، يمتاز بين الرجال بأخلاقه الكريمة وهمته العالية، فأرادت أن تستوثق من ذلك، فاتفقت معه أن يسير بتجارتها إلى الشام، وتعطيه أكثر مما كانت تعطي الآخرين.

واستعد محمد للسفر والتجارة بمال خديجة، فلما حان موعد انطلاق القافلة سار ومعه [ميسرة] غلام خديجة، وكانت خديجة قد طلبت من غلامها مراقبة محمد وأحواله، ليخبرها عنه بعد الرجوع من السفر.

مضت القافلة حتى وصلت الشام، وأخذ التجار يعرضون ما معهم من البضائع، ولما رجعوا إلى مكة كانت أموال خديجة قد ربحت أكثر مما كانت تربح في كل مرة، وأخذ ميسرة يحدث خديجة عما رأى من محمد. حدثها عن صدقه وأمانته، وأنه لا يغش ولا يخادع، بينما كان التجار الآخرون يكذبون ويغشّون ويخادعون ليبيعوا ويربحوا، وحدثها أن محمداً كان كلما سار أو مشى في الشمس ظللته غمامة تسير معه فلا تفارقه، وتقيه حرّ الشمس. كان مثالاً في العفة والشهامة والخلق الكريم.

سُرَّت خديجة بما بلغها عن محمد، ورغبت أن تكون زوجة له، فأخبرت إحدى صديقاتها برغبتها، وقامت تلك الصديقة بعرض الزواج على محمد، لكنه اعتذر بسبب ضيق ذات اليد، فقالت له: فإذا دُعيت إلى المال والجمال والشرف؟

قال: من؟

قالت: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قالت: أنا أكلمها لك.

ثم رجعت إلى خديجة فأخبرتها بما جرى، وبعد ذلك أخبر محمد أعمامه، وجاءوا فخطبوها له من عمّها عمرو بن خويلد، وتَمَّ الزواج. وكانت خديجة أول امرأة تزوّجها محمّد صلى الله عليه وسلم، وكان زواجه منها قبل بعثته بخمسة عشر عاما، وعندما أكرمه الله تعالى بالنبوّة، كانت خديجة أول من آمن به، وعاشت معه إلى السنة العاشرة من البعثة، فكانت تواسيه وتخفف عنه ما يلقاه من أذى المشركين واستهزائهم، وبذلت مالها في سبيل الله، وفي مرضاة رسول الله . ولّما توفيت حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حزنا شديدًا، وكان يفضلها على سائر نسائه، ويقول: آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورُزقت منها الولد.

وقد ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءه وبناته كلهم إلا إبراهيمَ، ولدت له: القاسم وعبد الله (الطيب الطاهر)، وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم.

ومن وفائه لها صلى الله عليه وسلم: لم يتزوج امرأة غيرها حتى ماتت. وكان يذكرها بخير ويثني عليها، ويترحم عليها. ويصل أرحامها، ويكرم صديقاتها. وقد نزل عليه جبريل يومًا، وأمره أن يبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب [لؤلؤ مجوف] لا صخب فيه ولا نصب.

رحم الله السيدة الطاهرة خديجة أم المؤمنين.ورضي عنها وأرضاها.

* * *

العمل الصالح

أنس فتى لطيف يحب الخير للجميع، شاهد ذات مرة كتابا شيقا في إحدى المكتبات وقرر شراءه. وراح يدخر بعضا من مصروفه ليشتري به ذلك الكتاب. ولما اجتمع له ما يكفي من النقود حملها وسار نحو المكتبة فرحا.

كانت قدماه مسرعتين تكاد لا تلامسان الأرض، وبدا سعيدًا مبتهجًا ،وكأنه يطير بغير جناح. وبينما هو في طريقه، لفت انتباهه طفل صغير يقف عند النهر. كان الطفل رث الثياب، ويبكي بكاءً مرًّا، فيصدر عنه نواح كالأنين، وكأنه فقد شخصا عزيزا عليه. رق قلب أنس لهذا الفتى الصغير، واقترب منه مواسيًا وسأله – لماذا تبكي أيها الفتى الصغير ؟

فتأثر الطفل عندما شعر أن هناك من يهتم لأمره وازداد بكاؤه.. قال أنس: بالله عليك أخبرني ما بك، فربما أستطيع مساعدتك.

قال الفتى الصغير: لقد عملت طوال النهار بجد ونشاط عند أحد الباعة لأحصل على قطعة نقود تعين على سدّ رمق أخي ورمقي، لأننا يتيمان وليس لنا من معين إلا الله. لكن قطعة النقود أفلتت من يدي وأنا أفكّر بالطعام الذي سأشتريه، وتدحرجت نحو النهر وسقطت فيه.

قال أنس: لا تحزن يا صديقي سأساعدك على التقاطها من النهر.

وتقدم أنس نحو حافة النهر المتدفق، وجثا على ركبتيه على رمال حافة النهر، فأحسّ أن الرمال تغوص تحت ثقله، وأحسّ بأن شيئا قد تحرك تحت ركبتيه، فنظر فرأى سرطانا صغيرًا يفرّ هاربًا من تحته، ولكنه لم يهتمّ لذلك. وتابع بحثه عن قطعة النقود المفقودة بين الأحجار المتناثرة في قاع النهر، لكنه لم يعثر على شيء.

وعندما يأس من ذلك تقدم نحو الطفل وربت على كتفيه وقال له:

- لا تحزن يا صديقي، خذ هذه نقودي التي ادخرتها كلها لك وأرجوك أن لا تبكي، ولا أريد أن أرى دمعة على خدك.

جمدت الدمعة في عيني الطفل الصغير، وشعّ فيهما بريق السعادة والأمل، وانقلب الحزن فرحًا، والبكاء ضحكًا، واندفع نحو أنس يعانقه ويشكره على معروفه الكبير، ومضى بسرعة ليحضر الطعام لأخيه، وهو يدعو بالخير والمحبة لصديقه الجديد أنس .

قال أنس في نفسه: أشعر بالسرور لأنني استطعت أن أحوِّل الدمعة إلى بسمة، واليأس إلى أمل، وسوف أدّخر من النقود ثانية، لأشتري ذلك الكتاب. وعاد إلى البيت، وكانت الشمس قد استعدّت للرحيل، وراحت أشعتها الصفراء الباهتة تجري هاربة أمام ظلمة الليل.

دخل أنس البيت واستلقى على الأريكة واخذ يفكر ثانية بما حصل هذا اليوم، مع اليتيم الصغير الذي حرم من حنان والديه، وحزن جدًا لحاله، وأغمض عينيه وسرعان ما استغرق بالنوم.

فجأة سمع ضجة آتية من اخلفه، فالتفت إلى مصدر الصوت ليرى رجلا قويا يتقدم نحوه وكأنه قد خرج من الجدار، وأراد أن يصرخ، لكنّ الصرخة تجمدت في حلقه. وامتدت يدا الرجل القويتان إلى أنس، وحملتاه عبر الجدار حتى وصل إلى قاعة كبيرة تشبه قاعة المحكمة.

وكان القاضي يجلس في كرسيه. وبعد أن أُدْخلَ أنس إلى قفص الاتهام.

قال القاضي: - بصوت هادئ رخيم - تقدّم أيها المتهم أنس -

أجاب أنس: لكنني لم أعمل شيئا خاطئا، سيدي القاضي.

قال القاضي: كل الناس تدّعي ذلك، وهذا هو الادعاء الذي قدم ضدك ..

وتابع القاضي: لقد كنت اليوم عند النهر، وعندما جثوت على الرمال، استندتْ ركبتاك على بيت السرطان الصغير فهدمته، وكدت تقتل صاحبه، وهذا عمل تستحق عليه العقوبة .

قال أنس: ولكنني لم أقصد إيذاء أحد!

قال القاضي: وبما أن العمل لم يكن متعمّدًا كما تقول، فسأعطيك فرصة ربما تخفف عنك العقوبة، أو تنقذك مما أنت فيه.

وأضاف هناك قرب المنصة يقف ثلاثة رجال، فإن ضمنك أحدهم وأخذ على عاتقه ألا تعود إلى مثل هذا العمل نجوت من العقاب.

نظر أنس نحو الرجال الثلاثة، فرأى الأول وكأنه صديقه المفضل الذي يحبه، فسأله أنس هل تضمنني أيها الصديق ؟

قال الرجل الأول: عندي اليوم ما يكفيني من الأعمال والمشاغل، ولا أستطيع أن أضمنك وخرج مسرعا من القاعة!

دب اليأس في قلب أنس، ونظر إلى الرجل الثاني وقال له هل تضمنني أيها الرجل القوي الشهم؟

قال الرجل: أنا أسف يا فتى، لا أستطيع أن أضمنك، فأنا رجل مادي جدًا، ولا أؤمن بالعواطف والأقوال .

قال القاضي: يبدوا أنه ليس هناك من فائدة ،إذا لم يضمنك الرجل الثالث، سنضعك في بيت من رمال ترقص فوقه كل السرطانات حتى يتهدّم عليك فيكون الحكم عادلا لأن العين بالعين والسن بالسن.

عندها تدخل الرجل الثالث قائلا: أنا أضمنه بكل تأكيد وثقة يا سيدي!
قال القاضي: لقد نجوت، أعيدوه من حيث أحضرتموه.

انهمرت دموع الفرحة من عَيْني أنس، وطلب من القاضي أن يعرف من هم هؤلاء الرجال الثلاثة.

تبسم القاضي وقال:

- الرجل الأول يمثل أصدقائك المنافقين والكاذبين بعواطفهم.
- والرجل الثاني يمثل نقودك التي ادخرتها فهو يحب المادة .
- وأمّا الرجل الثالث الذي أنقذك، فهو عملك الصالح الطيب الذي قدّمته لليتم الصغير، والذي أفرحت به إنسانا كان في حالة ضيق، لقد ساعدت وأحسنت، فيسر الله لك من يساعدك.

أسند أنس رأسه على طرف الأريكة متعبا حين أفاق من الحلم الذي راوده، ثمّ شعر بيد حانية تمسح دموعه، وبصوت أمه يقول: لماذا تنام على الأريكة يا أنس؟ وما هذه الدموع التي تنهمر على خدّيك؟

فتح أنس عينيه ونظر إلى أمه، والفرح يغمر قلبه. ودون أن يتكلم أمسك بيدها وقبلها، وطلب من والدته أن تسامحه إن هو يوما أخطأ أو قصرّ بحقها، وسار معها نحو سريره، واستلقى عليه، يقصّ عليها ما حدث، ثمّ استسلم لنوم هادئ وأحلام سعيدة.

* * *

قصّة النخلة

بينما كان الرسول محمد صلّى الله عليه وسلم، جالسا وسط أصحابه، إذ دخل عليه شابٌ يتيمٌ يشكو إليه قائلاً:

- يا رسول الله، كنت أقوم بعمل سور حول بستاني، فقطع طريق البناء نخلةٌ هي لجاري. طلبت منه أن يتركها لي لكي يستقيم السور فرفض، وطلبت منه أن يبيعني إياها فرفض.

فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتوه بالجار، ولما جاء الرجل، وقصّ عليه الرسول شكوى الشاب اليتيم، صدّق الرجل على كلام الرسول الكريم.

سأله الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يترك له النخلة لليتيم، أو يبيعها له فرفض الرجل. وأعاد الرسول الكريم قوله [بِعْ له النخلة، ولك نخلةٌ في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام.]

فذُهِلَ أصحاب رسول الله - صلوات الله عليه - من العرض المغري جدًا، فمن يدخل الجنة، وله نخلة كهذه فيها - وما الذي تساويه نخلةٌ في الدنيا مقابل نخلةٍ في الجنة؟ لكن الرجل رفض مرةً أخرى طمعا في متاع الدنيا.

فتدخل أحد أصحاب الرسول ويدعي أبا الدحداح، فقال للرسول الكريم:
- إن أنا اشتريت تلك النخلة وتركتها للشاب، فهل لي نخلة في الجنة يا رسول الله ؟
فأجاب الرسول: نعم.

فقال أبو الدحداح للرجل: أتعرف بستاني يا هذا ؟

فقال الرجل: نعم، فمن في المدينة لا يعرف بستان أبي الدحداح ذا الستمائة نخلة، والقصر المنيف، والبئر العذب، والسور الشاهق حوله! فكل تجار المدينة يطمعون في تمر أبي الدحداح من شدة جودته.

فقال أبو الدحداح: بعني نخلتك مقابل بستاني وقصري وبئري وحائطي. فنظر الرجل إلى الرسول صلى الله عليه وآله غير مصدق ما يسمعه!

أيُعقل أن يقايض ستمائة نخلة من نخيل أبي الدحداح مقابل نخلةً واحدة، فيا لها من صفقة ناجحة بكل المقاييس!

وافق الرجل وأشهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأشهد الصحابة على البيع وتمت البيعة.

ونظر أبو الدحداح إلى رسول الله سعيدًا سائلاً: أليّ نخلة في الجنة يا رسول الله ؟ فقال الرسول عليه السلام: لا، فبُهِتَ أبو الدحداح من رد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استكمل الرسول الكريم قائلاً ما معناه:

– عرض الله نخلة مقابل نخلة في الجنة، وأنت زايدت على كرم الله ببستانك كله، وَرَدّ الله على كرمك وهو الكريم ذو الجود، بأن جعل لك في الجنة بساتين من نخيل يُعجز عن عدّها من كثرتها. وقال الرسول الكريم: كم من مداح إلى أبي الدحداح.

- والمداح هنا – هي النخيل المثقلة من كثرة التمر عليها .

وظل الرسول صلى الله عليه وسلم، يكرر جملته أكثر من مرة لدرجة أن الصحابة تعجبوا من كثرة النخيل التي يصفها الرسول لأبي الدحداح، وتمنى كُلٌ منهم لو كان أبا الدحداح.

وعندما عاد أبو الدحداح إلى امرأته، دعاها إلى خارج المنزل وقال لها:

- لقد بعت البستان والقصر والبئر والحائط.

فتهللت الزوجة من الخبر فهي تعرف خبرة زوجها في التجارة وسألت عن الثمن!

فقال لها: لقد بعتها بنخلة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام.

فردت عليه متهللةً: ربح البيع أبا الدحداح – ربح البيع.

فمن منا يقايض دنياه بالآخرة؟ ومن منا مُستعد للتفريط في ثروته أو منزله أو سيارته في مقابل شيءٍ آجلٍ لم يره؟

إنه الإيمان بالغيب، وتلك درجة عالية لا تنال إلا باليقين والثقة بالله الواحد الأحد، لا الثقة بحطام الدنيا الفانية. وهنا الامتحان والاختبار!

فالدنيا لا تساوي أن تحزن أو تقنط لأجلها ! أو يرتفع ضغط دمك من همومها .

ما عندكم ينفد وما عند الله باق.

❋ ❋ ❋

الصياد

في قرية صغيرة على شاطئ البحر، كان هناك صياد للسمك، حريص جاد في عمله. كان يصيد في اليوم سمكة واحدة، فتبقى في بيته - ما شاء الله أن تبقى - حتى إذا انتهت، ذهب إلى الشاطئ ليصطاد سمكة أخرى.

ذات يوم، وبينما زوجة ذلك الصياد تقطع السمكة التي اصطادها زوجها، إذ بها ترى أمرًا عجبا ! رأت في بطن تلك السمكة لؤلؤة ! رائعة الجمال.

تعجبت قائلة: لؤلؤة في بطن سمكة ؟! سبحان الله.

- زوجي، زوجي .. انظر ماذا وجدت ؟!
- ماذا ؟؟
- إنها لؤلؤة .
- لؤلؤة .. ف- ف- في ب- ب- - بطن السم- م- مكة!
- يا لك من زوجة رائعة، لا بدّ أن ثمنها سيجعلنا أغنياء إلى الأبد!

أخذ الصياد اللؤلؤة، وذهب بها إلى بائع اللؤلؤ .

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام .
- وجدت هذه اللؤلؤة في بطن سمكة ..
- أعطني أنظر إليها، ياااااااه ! إنها لا تقدر بثمن، ولو بعت دكاني وبيتي، وبيت جاري وجار جاري، ما جمعت لك ثمنها. لكن .. اذهب إلى شيخ الباعة في المدينة المجاورة، عله يستطيع أن يشتريها منك. وفقك الله.

أخذ صاحبنا لؤلؤته، وذهب بها إلى البائع الكبير في المدينة المجاورة.

قال التاجر: إن ما تملكه لا يقدر بثمن، لكني وجدت لك حلاً، اذهب إلى والي هذه المدينة، فهو الوحيد القادر على شراء مثل هذه اللؤلؤة.

- أشكرك على مساعدتك.

وعند باب قصر الوالي وقف الصياد ومعه كنزه الثمين، ينتظر الإذن بالدخول عند الوالي .

- سيدي الوالي .. وجدت هذه اللؤلؤة في بطن سمكة.

- الله.. إن مثل هذه اللآلئ هو ما أبحث عنه، لا أعرف كيف أقدّر لك ثمنها ! لكن سأسمح لك بدخول خزنتي الخاصة، وستبقى فيها لمدة ست ساعات.. خذ منها ما تشاء، وهذا هو ثمن هذه اللؤلؤة.

- ست ساعات طويلة يا مولاي، يكفي ساعتان!

- فلتكن ست ساعات، خذ من الخزنة ما تشاء .

دخل صاحبنا خزنة الوالي .. وإذا به يرى منظرا عجيبا، غرفة كبيرةٌ جداً، مقسمة إلى ثلاثة أقسام: قسم مليء بالجواهر والذهب واللآلئ، وقسم به فراش وثير يغري بنوم لذيذ، وقسم به جميع ما يشتهي الإنسان من الأكل والشرب .

قال الصياد محدثا نفسه : ست ساعات ؟؟ إنها كثيرة فعلا على صياد بسيط الحال مثلي ! ماذا سأفعل في ست ساعات طويلة جدا؟

حسنا، سأبدأ بالطعام الموجود في القسم الثالث، سآكل حتى أملأ بطني. حتى أتزوّد بالطاقة التي تمكنني من جمع أكبر قدر من الذهب.

راح الصياد يأكل ويأكل حتى إذا انتهى، شعر بالنعاس، ورأى ذلك الفراش الوثير فحدث نفسه : سأنام فترة من الوقت، أستعيد فيها نشاطي، فأمامي وقت طويل.

وغط في نوم، وبعد برهة من الزمن..

- قم .. قم أيها الصياد الأحمق.. لقد انتهت المهلة.
- هاه .. ماذا ؟؟!!
- نعم، لقد انتهى الوقت، فهيا إلى الخارج.
- أرجوكم .. ما أخذت الفرصة الكافية .
- هاه .. ست ساعات وأنت في هذه الخزنة، والآن أفقت من نومك! أنت من أضاع الفرصة، فلا ينفع الآن ندم أو رجاء. وقبل أن تغادر القصر، خذ مني نصيحة وعبرة.

- أرأيت تلك الخزنة ! إنها الدنيا التي نتكالب عليها،ونتصارع من أجلها.

والمال هو المتعة، والفراش الوثير هو الغفلة. والطعام والشراب هما الشهوة والرغبة. وكل ذلك زائل أيها الصياد الطيب. عد إلى قريتك، واقنع بما رزقك الله، فالقناعة هي الكنز الذي لا يفنى، واعمل لآخرتك،"يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله".

* * *

تمت بحمد الله

الفهرس